هذه بيروت

التي كنتم توعدون

وليد رباح



هذه بيروت
التي كنتم توعدون

وليد رباح

(١)

أقوال شاهد: بعد حلف اليمين.. هذا موسى وتلك مريم.. وبينهما حمدان:

يقول الراوي:

بعد أن خضنا في بحار التيه أيامًا حطت بنا الأقدار في بيروت..منّا من انتزع لقمته بساعده فكانت مغموسة بالطين والدموع والعرق.. ومن كانت ساعده ضعيفة لا تقوى على مصارعة الخطوب فقد احترف المهن السرية.. ومَن لم يجد ما يعمله حفر قبور الموتى.. ومن قادته الطريق إلى المجهول باع دمه.. أما مَن وجدوا الباب مغلقًا بالمزلاج فقد عملوا في مهن الشعوذة والاحتيال.. وآخرون كانوا يأكلون من أكبادهم.. ومع آخر فوج.. عشنا وشفنا.



يتهادى النعش على الأكف كأنه الريشة.. يطير مع الريح كأن مَن يسكنه على عجلة من أمره كي يتوارى في أعماق الأرض.. تعثرت قدما أحد حملته بحجارة الطريق فسقط الرجل أرضًا وتلوث أنفه بالرغام والدماء.. واختل توازن النعش

فكاد يسقط لكن أحد المشيعين التقطه قبل سقوطه... ساعد الآخرون المُتعثر فوقف ووشى بوجهه بشيء من الغيظ وقليل من التنبه.. جلس المتعثر على قارعة الطريق كي ينتزع الشوك من قدميه الحافيتين فسال الدم متدفقًا يروي طريق المقبرة.. وضع إصبعه داخل الجرح وضغط بقوة.. لكن الدم ظل على عهده من التدفق..

.. كانوا عجلين في سيرهم غير أنه سكون لا تسمع فيه نأمة ولا حركة إلا وقع أقدام أصابها الهزال فغدت لا تخرج صوتًا بينًا على الأرض المتربة.. لكن الذين يحملون النعش نفخوا في الهواء طويلاً ضجرًا وتأففًا.. كانت أرجلهم تطوي المسافات طيًّا كأنما يريدون التخلص من الجثة.... وعقولهم تسبح مع أراجيلهم في المقهى يشمون فيها رائحة التبغ الرخيص والضجيج والصراخ.. حتى إذا ما وضعوا النعش تحت ظلال أشجار الصنوبر قفلوا راجعين يتسابقون مَن منهم يحظَى بكرسي قبل الآخر في المقهى.. وتركوا الحزن لصاحبه.

حمل "موسى" فأسه وأخذ يسوي حواف القبر بتؤدة.. غرقت عيناه في صمت كئيب وهو يسترق النظر إليها فيراها تائهة تتنقل عيناها بين القبر والنعش والأشجار.. قالت: إنه يستريح تحت ظلال الصنوبر.. لم يجِب.. تصبب عرقه نتيجة الحفر فناداها بصوت لم يغادر حنجرته إلا قليلاً.. قد

انتهيت من الحفر فهاتي جثته كي نوسدها التراب.. قالت له: غدًا تمطر السماء فتنكشف الأرض عن الجثة فيسحبها الطوفان. عمِّق القبر قليلاً.. قال: قد هدَّ ساعدي ولا أستطيع أن أحفر أكثر..ثم تابع: الأموات لا يشعرون إذا ما أخذهم التيار إلى الوادي.. لم تجب.. قفز مسرعًا إلى الحفرة وأمسك بحافة النعش وقال لها ساعديني.. بكت ولم تحرِّك ساكنًا.. ترك النعش وقفز منَ الحفرة وربت على رأسها بحنان وقال: ما زلتِ غضة مثل غصن رمان طري وغدًا تحملين وتلدين.. فلم تجِب وظلت تبكي:

- أعرف.. ليس أصعب على الإنسان من أن يدفن طفله بيديه.

- ....

- كفي عنَ البكاء أرجوكِ.. عيناك كانتا هديتي يوم الزفاف.. ألا تذكرين؟!

- ....

- الناس في شغل عنا يا "مريم".. لم يشاركنا أحزاننا غير أشجار الصنوبر وهزيع الريح الذي يحرِّك الأغصان بنعومة.

- .....

- كل مصيبته على مقاسه.. الله أعطى والله أخذ..

- .....

- راحتاي أصابتهما القروح نتيجة الحفر.. لم يساعدني أحد.. كلهم ذهبوا..

- ....

- كنت أنوي إذا ما توفي أحدنا (هناك) أن أبني له قبة لا يمحوها المطر.. فإذا ما مت الساعة أو غدًا فلتذهب جثتي إلى حيث ألقت حملها..لست أعبأ بما قد يحدث للأموات.. لكني آبه لبطنك الذي يحمل في كل سنة طفلاً لا أراه إلا لمامًا..

- .....

- هل أصابك الخرس يا امرأة..

قالت من خلال دموعها:

- لست كما تظن.. كل مصيبته على قدر طوله.. وما يواسيني ويطمئن قلبي أن هواءنا في الخيمة مصحوب برائحة الروث والزبالة وفضلات المخيم..

نظر إليها باستنكار وقال: ألم أقل لكِ فيما سبق إن القبر خير من الخيمة.. وإن الأحياء في هذا المخيم يتمنون الدفن فيما بين الأشجار والرائحة الزكية..

لكنها لم ترد عليه.. وتواصل هطول الدمع من عينيها.. تنهد ثم مدَّ يديه إلى النعش وقال: ساعديني.. دفعته من الطرف الآخر حتى الحفرة.. وهناك رمت بنفسها فوق النعش وانتحبت حتى جف ريقها.. أدار لها ظهره واستظل بشجرة ولفَّ سيجارة وأخذ يمتصها باشتياق.. نظرت إليه.. تحولت عيناها إلى زجاج براق.. قفز إلى الحفرة وحثها أن تدفع النعش ففعلت.. فتحه من جانبه وسحب جثة الطفل ومددها في الحفرة بعناية.. سوَّى موضع الرأس وغطاه بحجر رقيق.. ألقمت يده إبريق الماء، فرشَّ على التراب قليلاً ثم أسرع يحثوه بمنكاشه على كل الجوانب.

زرعت فوق تراب القبر نبتة خضراء.. وقبل اجتياز البوابة أبطأت قليلاً فشدها من يدها بحنو وتنهد.

- افردي هذا الوجه فتلك حال الدنيا.

- .....

- ربما أراد الله له الراحة بعد طول عذاب.

ظل يحكي وظلت تسير بجانبه كقطعة من خشب السنديان..

سرحت بعيدًا.. قالت له يا "موسى".. قلبك كالصخر مزي المذاق.. الطفل منذ أيام لا ينام.. وأنت تمتص السجائر

كمشتاق لثدي أمه.. تذهب صباحًا وتعود في المساء خاوي الوفاض.. لا عمل لك ولا لقمة يمكن أن تقينا شر الجوع والمسغبة.. غدونا نشتم رائحة الرغيف مثلما هو العطر الذي تركناه هناك.. قالت جارتنا إنها الحصبة.. وأخرى أكدت أن صدره مصاب بالتعفن.. وأخرى قالت إن جسده يذوي نتيجة الجوع.. أصبح جسده جلدًا على عظم رقيق.. لا نقود لدينا لنرسله إلى الطبيب كي يعالجه..

– أتريدين بيع دمي ثانية لأداويه.. عند مرضه قبل أشهر لم نجد ما ندفعه للطبيب سوى بعض دمي.. قالوا لي إنه كيس من الدم صغير الحجم فإذا بهم يمتصون من دمي عبوتين.. أكثر من هذا لم يعطني الطبيب أو حتى الممرض شيئًا من السوائل كي أتعافى بعد استنزاف دمي.. نهضت فإذا بي أقع من طولي على بلاط المستشفى..

– طبيب وكالة الغوث يعالجه بالمجان.

– من يضمن أن يأتي الطبيب في موعده.. يقولون إنه يأتي كل أسبوع مرة.. ولكنه في أحيان كثيرة لا يأتي إلا بعدد أصابع اليد من الأسابيع.. فيموت الناس بالجملة..

– علينا أن ننتظر أربعة أيام أخرى حتى تحين عودته.. هذا إن صدق.

- لكنه يموت.

- وأنا أيضًا أموت... علينا بالصبر.

- هذه الكلمة تقتلني..

- ماذا نفعل.. قد ذهب منا كلُّ شيء ولم يبق غير الصبر.

بعد أيام لم يدرِ أحد بموت الطفل.. عندما كشفت عنه الغطاء صرخت برعب.. قد مات يا "موسى".. لقد فقدناه.. حثت على رأسها بعض تراب أرضية الخيمة.. تمالك نفسه وسعى إليها واحتضنها بقوة دون أن يفه بكلمة..

ذهب "موسى" إلى المقهى واستحث الناس كي يحملوا النعش معه.. تطوع بعضهم وتركوا طاولات النرد والشيشة وهم يتأففون.. سار إلى جانبها صامتًا.. سرح بعيدًا إلى أرض أحلامه التي كانت خضراء يانعة تقول له عندما يحين الموسم تعالَ فاقطف ثمري.. ثم استفاق.. تركزت نظراته فوق حصى الطريق يعد نوى التمر المنثور على امتداد الشارع.. ثم غابت أحلامة..

حين ثبت أطراف الخيمة كانت الريح تزأر والبرق يومض معلنًا قدوم الماء.. عاشا أيامًا على الكفاف.. ينسرب كل يوم مع نسيم الصبح ويجلس في ساحة البرج في وسط المدينة بعد أن يقرصه الجوع ويبني العرق على بدنه طبقية طينية..

ثم يعود مع المساء إلى الخيمة خاويًا فيشعر بأن السكاكين تخز جسده المتعب بقوة.

- حفيت يا امرأة.. إنهم يهربون مني كأجرب يخشون عدواه.

- هون عليك يا "موسى" ما بعد الضيق إلا الفرج.

- لكنكِ جائعة والأطفال جائعون.. لو كنت وحيدًا لابتلعت حصى الطريق ولأكلت أوراق الشجر.

- ألم أقل لك دعنا نموت هناك..

- أعرف ذلك وأستذكره.. لكن الموت هو الموت.. سواء كان هنا أو هناك.

- كلا.. الموت هناك مختلف عن أي مكان آخر.. يكفي أن الميت فيها يستنشق عبير الأرض فيحيا ثانية..

- أنتِ تهذين يا امرأة..

- أليس الهذيان جزءًا من حياتنا هنا؟!

- بلى.. لكنه الهذيان الذي يجمعنا معًا.. أنا وأنتِ.

- وماذا يفيدنا ذلك..

- الفائدة في أن نبقى أحياء سواء هنا أو هناك.

- ....

سنة بل أكثر قليلاً:

اخترقت صرختها فضاء الليل الموحش، تلوت يمينًا ثم وقوفًا فيسارًا، دارت حول نفسها عدة مرات ثم ارتمت متأوهة فوق الأرض المتربة العارية.. عضَّ "موسى" شفته السفلى حتى كاد يدميها.

منذ أن انقطع الغيث لم نحصل على الماء.. حتى وإن جاء فإن الزرع هناك ينمو لكنه هنا يظل جافًا لا حياة فيه.. لم نر الخضرة تزين وجه الأرض في هذا القفر.. ثم استفاق على صرختها ثانية:

- تذرعي بالصبر يا "مريم".

- إني أموت يا "موسى".. أسرع إلى القابلة.

- في الليلة الماضية جاءت وانتظرت ولكنك لم تلدي.

- أشعر بأن الطفل سينزلق على تراب الخيمة.

- قد قلتيها أمس ولم تلدي.

عضت شفتها نتيجة الألم فانساب الدم يتلوى نحو العنق المترب.. ظلت تعضها وتصرخ حتى نهض وارتدى ثيابه مسرعًا وخرج.. وما كاد يخطو خارج الخيمة حتى أتاه الصوت آمرًا فتوقف.

- قف يا هذا.. ما الذي تفعله في هذا الليل..

- أنا موسى الشعبي.. زوجتي تكاد تضع مولودًا وسأحضر لها القابلة

- ضحك العسكري "حمدان" وقال:

- منذ مدة ونحن نبحث عن اللصوص الذين يسرقون طحين وكالة الغوث لكنا الليلة وفقنا.

– يا سيدي أرجوكَ.. زوجتي تعاني آلام المخاض وأنت تمزح.

– وهل بيني وبينك ما يوجب المزاح يا ابن العاهرة؟!

أدرك "موسى" أن العسكري حمدان جاد فيما يقول.. وأنه إذا لم يأخذه باللين ويركع تحت قدميه فقد تموت "مريم" دون أن يتمكن من إسعافها.

- يا سيدي .. أقسم لك أن زوجتي تكاد تموت فدعني أسعفها ثم أعود إليكَ.. قلت لك إنها تعاني آلام المخاض..

- ومنذ متى كانت لكم كلمة الرجال أيتها الحشرات.. امض معي إلى مركز الشرطة وهناك نتفاهم.

تلمس خشونة راحته وهو يمررها على راحته الأخرى.. همَّ أن يطلق يده في الفراغ قذيفة تجدع أنفه.. لكن وجه "مريم" المحزون عاد يطرق ذاكرته فتراجع.

- فيمَ تفكر يا هذا.. انطلق أمامي نحو المركز.

- كرامة لله يا سيدي دعني اذهب فزوجتي تكاد تموت.

كشر "حمدان" عن أسنانه فلمعت في العتمة.

- سأجعل كل لصوص المخيم يمشون غدًا في جنازتها فلا تقلق.. وسوف نوفر عليك ثلاثة أرغفة من الخبز يوميًا تشبع بها معدتك الخاوية..

تلكأ "موسى" فتلقى عصا غليظة على كتفه. ثم أتبعها "حمدان" بلكمة أخرى من يده القوية.. تأوه من عنف الضربة لكنه انساب أمام العسكري كجدول ماء ليس له من ضوابط.

- ادخل يا ابن الـ.....

دفعه بقوة فوقع على وجهه.. انسابت خيوط الدماء من أنفه وخديه وأخذت تلون بلاط مركز الشرطة.. سمع أصواتًا غريبة تضحك بقوة وتناقش قضيته قبل أن يتكلم

- اين عثرت على هذا الزنديق؟

- قرب مستودع الإغاثة.

- ربما كان من لصوص الطحين.

- كان يتلصص كمن يخفي شيئًا.

- هل فتشته ؟

- خشيت أن يغدر بي فصممت على تفتيشه هنا.

- وبماذا برر وجوده خارج خيمته ؟

- قال إن زوجته تلد الليلة وإنه في طريقه للقابلة.

ضحكوا جميعًا.

- سيهدي مولوده الليلة كيسًا من الطحين يسرقه.

- أو علبة من السمن أو شيئًا من الأرز.

جاء أحدهم إليه وأمسكه من قبة قميصه المهترئ ورفعه قليلاً عن أرض المركز.. مدَّ "موسى" يده إلى فمه ومسحه فتلوثت راحته بالدماء.

– منذ متى وأنت تخدعنا يا ابن الحرامي ؟

تنفس "موسى" بصعوبة.. ثم نظر إلى وجوههم بضراعة.. التفوا حوله وتحفزوا لتوجيه اللكمات.

- قل يا ابن الـ.. منذ متى وأنت تخدعنا ؟

- ...

- وهل يستطيع الإنكار من ضبط بالجرم المشهود.

- لمن كنت تبيع المسروقات ؟

- تكلَّم يا هذا.. لقد عطلتنا عن لعب الورق.

- دعوه للغد فقد يتكلم.. ولنواصل اللعب.

نظر "موسى" إليهم وقد وشى وجهه بالرعب:

- إن زوجتي تموت.. لست لصًا كما تظنون.. وإن كنتم لا تصدقون فليذهب أحدكم إلى خيمتي.. للتأكد..

ضحكوا.

- يريد أن يخدعنا.

- كلهم أولاد حرام.

- اقسم أنني أقول الحق.

- كلكم تقسمون ثم يثبت أنكم كذابون.

غمزهم "حمدان" بشيء من الخبث فعادوا إلى اللعب.. أسند موسى ظهره للحائط وأخذ ينظر إليهم وكأنه يقف على كومة من جمر ملتهب.. مرت نصف ساعة وكأنها دهر.. برقت في ذهن "موسى" كلمات أطلقها:

- يا ناس.. أليس فيكم من هو متزوج؟

تركوا اللعب ونظروا إليه بارتياب.

- هل مر أحدكم بما أمر به يومًا.. ألم ينهض أحدكم ذات

يوم من فراشه الدافئ لينقذ امراته وهي على وشك الوضع.. ارحموني أرجوكم.. إنها تموت..

قال له صوت أجش:

- وهل تضع زوجتي وزوجتك في سلة واحدة يا ابن العاهرة؟

- حاشا لله يا سيدي.. لكني أشعر كما تشعرون.

نهض إليه أحدهم:

- أحقًا ما تقول؟

لكمه على أنفه فازداد تدفق الدم.. قال "حمدان" من الغرفة الأخرى.. لا تضربوه يا جماعة.. لقد أوشكت أن أنهي تقريري فدعونا نحتفل به في الصباح.

عادوا ثانية للعب بعد أن أوصوه بأن يقفل فمه. انصاع إليهم.. جاء "حمدان" يحمل تقريره وتفرس في وجهه. رأى الدموع تنساب على خديه مختلطة بالدم والتراب.. دعاه إلى الغرفة الأخرى فسار خلفه مطرقًا.. قال لهم "حمدان" واصلوا اللعب وسأتفاهم معه.

- اجلس يا "موسى".. وحدثني بصراحة.

لم يصدق ما سمعه غير أن "حمدان" كرر القول فجلس على الأرض العارية.

- حدثني.. ألم تكن تنوي سرقة طحين وكالة غوث اللاجئين؟!

انسابت الدموع على خديه.

- أقسم لك يا سيدي أن زوجتي تعاني آلام المخاض وقد كنت في طريقي للقابلة.

- لكن طريق القابلة على الجهة اليمنى من خيمتك.. وقد كنت تتبع الطريق اليسرى.

- ربما كان ذلك خطأ مني.

- حسن.. سأذهب معك إلى خيمتك لكي أتأكد لكني قبل أن أتحرك سأطلب إليك أن تسد أفواه من في المركز.

- كيف يا سيدي؟

- كم تملك من النقود؟

ارتعش جسد "موسى" وقال:

- خمسون ليرة يا سيدي ادخرتها لمثل هذا اليوم.. وهي في جيبي.

- حسن أعطنيها.. وسأنتشلك من بينهم كما تُنتشل الشعرة من كومة العجين.

- لكن أجرة القابلة..

قاطعه "حمدان":

- يا لك من مغفل.. ألا تشتري حياة زوجتك بخمسين ليرة.

- خذها يا سيدي.. خذها.

مدَّ "موسى" يده إلى جيبه وتأوه.. لمعت الورقة في وجه "حمدان" فابتسم.. قاده أمامه ووصل إليهم:

- سأتأكد إن كان ما يدعيه صحيحًا.

- هذا لا يجوز يا "حمدان".

- لقد تفاهمت معه.

- حسن. ولكن ليس قبل أن ينظف غرف المركز كلها.

قال "موسى" بضراعة:

أفي هذا الليل يا سيدي.. أقسم أنني سأعود إليكم غدًا.

صرخ به آخر:

- قال لكَ يجب أن تنظف غرف المركز الآن.

نظر "موسى" إلى وجه "حمدان" بتوسل فقال "حمدان":

- على كفالتي يا جماعة.. سيعود إليكم غدًا.

ما إن رأى "موسى" نفسه خارج المركز حتى أطلق ساقيه للريح.. التقط آخر كلمات العسكري "حمدان" وهو يقول له: عُد إليهم غدًا لتنظيف المركز وإلا أحالوك للمحكمة.. حدثته نفسه أن يرجع إلى الخيمة ليخبرها سر تأخره.. لكنه عدل وأخذ يركض نحو خيمة القابلة.

أخذ "موسى" يعدو كمن به مسٌّ من الجنون.. نادى بأعلى صوته فخرج سكان الخيمة.. قالت له القابلة:

- زوجتك لن تلد قبل يومين.. قلت لها ذلك أمس.

- أرجوكِ إنها تموت.

- لكن امرأة هنا على وشك الوضع ولا أستطيع تركها.

حاول استعطافها لكنها أفهمته أن ينصرف وستلحق به إن يسر الله وأنجبت المرأة.. عاد إلى خيمته يعدو.. تعثر في الطريق بحبال خيمة وسقط على وجهه فازداد تلوث وجهه بالدم.. ولج خيمته فرآها تستلقي على ظهرها وقد جحظت عيناها وكأنما تعاني سكرات الموت.. صرخ بأعلى صوته.. ابتسمت بوهن وقالت:

- ما كنت أعتقد أنك قاسي القلب إلى هذه الدرجة.

- أفديكِ بروحي يا "مريم".. ما حدث كان فوق طاقتي.

- أين القابلة.. إني أموت؟

- ستأتي بعد لحظات.

- ما بال وجهك ملون بالدم والطين؟

مدَّ راحته إلى وجهه وتنهد بعمق:

- لقد سقطت على وجهي في الطريق.

- لكن هالة سوداء تلون عينك اليمنى.

- ربما.

صرخت، خلل شعرها بأصابعه ومسح على وجهها.

- ستأتي القابلة يا "مريم".. فتجملي بالصبر.

ازداد صراخها.

- خذني إلى المستشفى يا "موسى".. إن لم تفعل فقدتني.

اهتز جسمه كمن هو في ثلاجة:

- لكن المستشفى يطلب الكثير.

- ربما أشفقوا وساعدونا.

- حسن يا "مريم".. ولكن كيف نصل إلى هناك.. لا وسيلة نقل في هذا الليل.. ثم إنني لا أمتلك الأجرة..

صمتت.. لمعت في ذهنه فكرة فسارع إلى البوح بها..

- سأذهب إلى جارنا فأوقظه.. إن لديه عربة القمامة يا "مريم".. ثم إن أبا حنا رجل خدوم لا يرفض مساعدة جيرانه..

جرت على فمها ابتسامة باهتة.. لكنها أذعنت ولم تتكلم.. ذهب "موسى" مسرعًا إلى جاره ثم جاء بالعربة يجرها وصفير عجلتها يمزق صمت الليل.. حملها على ظهره ثم ألقاها داخل العربة.

- لا بأس عليك يا "مريم".. المستشفى قريب.

أخذ يعدو بالعربة وكلما أرادت أن تصرخ رجاها أن تكتم صوتها لآلا يسمع العسكر صرختها فتلد الليلة في المركز.

اجتاز البوابة.. أفاق حارس المستشفى من غفوته وانتهره.. وعندما رأى المرأة تتمدد داخل العربة ضحك رغم النعاس الذي جعله كدجاجة دائخة..

- أين تذهب بحملك يا رجل؟

- بربك لا تسخر.. دلني على قسم الولادة.

- الولادة.. هل تريد أن تنقلها بالعربة حتى الطابق العلوي.

صاح به "موسى":

- قلت لك لا تسخر.

قال الحارس بهدوء وقد أدرك الشر في عيني الرجل:

- أنزلها من العربة وسأطلب لها محفة الإسعاف.



قالت له الممرضة سأقطع لك إيصالاً بمائة ليرة.. ثم تدفع خمسمائة أخرى في الصباح.

- لكني لا أملك الآن شيئًا. لقد جئت مضطرًا إلى هذا المكان.

- إذن عليك أن تعود وتبحث عن مستشفى آخر.

- يا ناس. أليس في قلوبكم رحمة؟

- اخفض صوتك أرجوك.. إن نظام المستشفى لا يسمح بالصراخ..

- لكني لا أملك المبلغ وزوجتي تعاني سكرات الموت.

- النظام يقول بالدفع مقدمًا.

- إنكم وحوش ليس في قلوبكم رحمة.

خرج أحدهم من غرفة مجاورة وسيماء الغضب على وجهه.. نظر إلى الممرضة ثم همس:

- ما هذا الصوت.. أنحن في حانة؟!

- لقد جاء بامراته كي تلد لكنه لا يمتلك النقود.

- نحن لسنا جمعية خيرية أيها السيد.

- لكني لست سيدًا وأنت ترى أسمالي.

- من الواجب أن أكون مهذبًا معك.. فإن كنت أنت غير ذلك فسنلقي بك خارجًا.

- ألق بي إلى حيث تريد..

- أنت وزوجتك.

- يا لكم من وحوش.

- اخرج من هنا وإلا استدعيت الشرطة.

- الشرطة... حسنًا يا سيدي.. سأخرج.

أعادوها إلى المحفة.. وبدأ المصعد في الهبوط إلى الدور السفلي.. أصابها الإغماء فلم تعد تشعر بما حولها.. وعندما حاول وضعها في عربة القمامة ثانية جاءه صوت من خلفه هينًا لينًا وهو يربت على كتفه.

أعدها يا هذا.. لقد وافق الطبيب على أن تلد هنا لكنه اشترط بأن توافق على مطلبه.. لمعت عينا "موسى" وقال: إنني على استعداد لأن أقدم دمي.

قال له الممرض نحن لا نريد دمك.. نريدك ان تصغي للطبيب وأن توافق على شروطه..

أعادوها ثانية إلى المصعد.. أشار الطبيب بأن يدخلوها إلى حجرة مجاورة.. ثم أشار إلى "موسى" أن يتبعه.

جلس الطبيب خلف منضدة وقال:

- ستَلد زوجتك هنا.. وسنساعدك.

- بارك الله فيك يا دكتور.

التقط يد الطبيب وقبَّلها.. تابع الطبيب حديثه بهدوء.

- ستواتيك فرصة لتحسين وضعك المادي.

جحظت عيناه وأخذ يلتقط الكلمات بانتباه..

- أنت تعرف أن أناسًا كثيرين لا ينجبون.. بالأمس جاءني (البيك) إلى هنا..ألا تعرف البيك.

- كلا يا سيدي.

- إنه زعيم الطائفة.. ينجح في كل فصل نائبًا عنا.. وهو الذي يحيي ويميت ويسجن ويعذب ويسعد..

- هذا لا يهمني. إنني لا أعرفه.

- صه يا هذا.. لئلا يسمعك أحد رجاله فلا تدري أين تدفن.

- إنني رجل أبحث عن لقمتي يا سيدي ولا أتدخل في شؤون الناس.

- لنعد إلى الموضوع، إن البيك لا ينجب. وقد رجاني أن يتبنى مولودًا ذكرًا كي يرث أمواله إذا ما مات بعد عمر طويل.

- أتساومني على قطعة من جسدي؟!

- وسيدفع لك خمسة آلاف ليرة.

- أنتم وحوش ولصوص.

- إنه مبلغ ضخم تستطيع بناء حياتك فيه من جديد.

- لينتقم الله منك.

- إنني أدلك على طريق الخير.

- دعني آخذ زوجتي من هنا.. هذا مسلخ للحوم البشر وليس بمستشفى.

- دعني أوضح لك أمرًا آخر.. إن كان المولود أنثى فلن نطلب منك المال.. ستأخذ المولود معك إلى بيتك.

أطرق "موسى" مليًا.. هذا العالم القذر.. هل يبيع الإنسان لحمه إذا عزَّ العلاج.. لكنه سبق وأن باع دمه إلى مستشفى آخر كي يداوي طفله.. جاءه صوت الطبيب هامسًا.

- ها.. ماذا قلت.. سنقول لأمه إنه توفي قبل ولادته.. ومن حسن الحظ أن هناك جثة طفل مات في هذه الليلة.

علا صوت "موسى" قائلاً:

- بربكم ماذا أسميكم.. هل تعلمتم مهنة الطب أم مهنة البيع والشراء..

قال الطبيب بحزم:

- لا تتفلسف كثيرًا.. لقد عرضت عليك الأمر.. فإن وافقت فدع زوجتك وأمضِ إلى بيتك وإلا فأعدها معك في عربة القمامة.. ثم تابع.. هناك كثير مَن يقبلون هذا العرض فلا تجعل هذه الفرصة تضيع منك..

قال "موسى" بذهول:

- عربة القمامة؟؟

- نعم.. لقد أخبروني أنك أحضرتها إلى هنا في عربة للقمامة.

نظر إلى الطبيب بقسوة.. تحرك فورًا إلى حيث ترقد زوجته.. وكلماته تسبقه.. سيقول لها انهضي فقد أخطأنا العنوان فهذا مسلخ وليس مستشفى.. لكنه رآها ترقد على ظهرها وقد تقلصت عضلات وجهها وغدت صفراء كأنما تلفظ آخر أنفاسها.. تبعه الطبيب وقال له..

- ها.. ماذا قلت..؟

سرح بعيدًا وقال بعد تفكير:

- إني أوافق..

ثم تناول من يد الطبيب سيجارة أشعلها وأخذ يمتصها ويأكل نتف التبغ من عقبها كأنما يمضع قطعة لحم لذيذة.

أقوال شاهد زور:

أرسل "موسى" نظرات عجلى نحو الطريق واتخذ مجلسه على رصيف الشارع قبالة المقهى.. صفق بيديه فألفى نادل المقهى يحدق فيه ببلاهة.. طلب كوبًا من الشاي ونرجيلة.. وعندما التقط مبسمها حدَّق في فقاقيع الماء.. وراح يخطو مع الزمن مسرعًا كأنما يخاف أن يسبقه موعد جاهد مليون سنة قبل أن يتحقق.. تناوبته الأحزان والأفراح معًا.. أخذ يرسم في مخيلته قصصًا وأقاويل وأمورًا لم يفقه منها في النهاية شيئا.. ومنذ ان سالت النقود في يديه وهي تحاصره بأسئلة لا يستطيع الإجابة عنها.. كلما اعتقد أنه وصل إلى شاطئ الأمان فاجأته "مريم" بسؤال آخر فيثور ويلعن الدنيا ومَن فيها وعليها.. من أين لك هذا.. ثم يعقد حطته في وسط عقاله ويتجه إلى المقهى يفرغ في النرجيلة همومه.

ومنذ أن أخذ يحلف الطلاق تلو الآخر أن يدفع عن هذا وذاك ثمن القهوة وتعميرة النرجيلة وكوب الشاي كثر الأصحاب

وأصبحوا يؤلفون المواويل في كرمه وحسن سيرته. يستذكر في لياليه الصيفية مَن يلتفون حوله كالإسورة حول المعصم.. يطلبون وده ويلقون بالقفشات التي تضحكه وتجعله يستبشر بغد مشرق.. يفرح عندما يقول له أحد المنافقين ستعيِّنك الدولة مختارًا على المخيم.. وسنخرج زرافات ووحدانًا في مظاهرة تطالب بأن تكون مختارنا فلا ينافسك فيه أحد.... أكثر من هذا سنتخلص من حكم "حمدان" فلا يعود إلى استفزازنا لأن لنا مَن يحمينا..

(آه ملعون أبوك يا زمن.. إن أقبلت أقبلوا وإن أدبرت فرد كل منهم إصبعه الوسطى في وجهي حتى لتكاد تلامس عيني)

جاء "حمدان" متهلل الوجه منشرح الأسارير وجلس قربه.. تنبه "موسى" ففرد وجهه بابتسامة عريضة.. ثم صفق بيديه يدعو النادل ليكرم العسكري "حمدان".

قال "حمدان" بعد أن ثبت سيجارة في زاوية فمه ناظرًا إلى "موسى" نظرة ذات مغزى ومعنى..:

- منذ مدة وأنا أبحث عن سر ثرائك المفاجئ يا "موسى" حتى اهتديت.

برقت عينا "موسى" وسقط مبسم النرجيلة من يده فقال "حمدان":

- لا تقلق سيظل هذا الأمر سرًا بيننا لا يعلمه أحد.

سرح "موسى" نظره بين الوجه المفرود قبالته وبين وجوه زبائن المقهى.. تناول حمدان مبسم النرجيلة ودسه بين أصابع "موسى" وهو يحدق في وجهه يحاول استنباط ما يمكن أن ينبئ بثرائه المفاجئ..

- مذ أخذت الليرات ترقص على راحتيك غدونا صديقين حميمين.. ولطالما سهرنا معًا في خيمة دلال المشعوذة التي تعرف كل أسرار الدنيا.. ولن أصرح لأحد أنك كنت تختفي خلف ستار في الخيمة أنت وبعضهن في ليلة أنس أتذكرها عندما كنت تخفي صوتك كأنما بح واختنقت الكلمات في حلقك..

تفحصه بنظرة خاطفة فرأى امتقاع وجهه ورجفة راحتيه فتابع "حمدان": بالأمس فقط علمت سر ثرائك.. أما قبل ذلك فقد كنت أبحث وأقلب نظري عن سر ذلك الثراء حتى توصلت مع عدد من محبيك إلى سر ذلك..

- هل أخبرك الطبيب؟

- إذن فأنتم تسمونه الطبيب.. ضحك ثم تابع بصوت لا يكاد يسمع:

- إذن فأنتم توردونه لطبيب يحوله إلى عقاقير ممنوعة..

(ثم حدث نفسه) وقال:

- لا تهمني التسمية أو معرفة أحد.. ما همني أن نتقاسم.

- نتقاسم ماذا.. إنني لا أملك سوى خمسمائة ليرة فقط وهي ما تبقى من العملية.

قال حمدان وقد تهللت أساريره..

- إن ظني لا يخيب أبدًا.. أعطنيها وعدني أن تقاسمني في العملية التالية.

- لكني لا أنوي فعلها ثانية.

ضحك "حمدان" وقال:

– أتنوى خداعي يا "موسى".. لماذا لا تثق بي.. لماذا لا نعمل معًا لخيرنا أنا وأنت فقط.. وإن كنت توافق فسأضم بعض الأصدقاء إلينا.

جمع "موسى" كل شجاعته ونظر إلى وجه "حمدان" بشيء من القرف وقال:

- في المرة الماضية مددت يدك النجسة إلى جيبي فانتزعت منها كل ما أملك من نقود ادخرتها أجرة للقابلة.. فاضطررت لأن أسلك طريقًا لا يسلكه إلا الأنذال.. وفي هذه المرة تريد أن تجردني من نقودي كي أستمر في نفس الطريق.. إن زوجتي

على وشك أن تلد.. وأقسم إن لم تبتعد عني لأجعلنك عبرة في هذا المخيم..

ضحك "حمدان" وابتلع الإهانة:

- أصبحت تمزح بطريقة مسلية.. ولو كان غيرك قد فعلها معي لأصبح أثرا بعد عين ولن يعثر عليه أحد حتى ما بين الأموات..

ازداد غيظ "موسى":

- أنا لا أمازحك يا رجل.. إنك تطلب مني ما يستحيل علي أن ارضى به..

قطب "حمدان" جبينه وقال:

- حسن إذن.. لن أخبر من في المركز.. لكني سأخبر زوجتك أولاً كي تهديك إلى اتباع الطريق السوي.

انتفض "موسى" كمن لدغته أفعى.

- لماذا تستغل ظروفي التعسة يا "حمدان"..

في غضون ذلك جاء طفل يركض لاهثًا..

عمو "موسى".. بحثت عنك في كل مكان حتى اهتديت.. زوجتك تقول إنها ستنجب لنا اليوم طفلاً صغيرًا نلعب معه في الحارة عندما يكبر.. إنها تصرخ وتصرخ.. انتفض "موسى"

ونظر إلى وجه "حمدان" فألفاه جامدًا كالصخر..

- ها.. ماذا قلت.. ثم وجه حديثه إلى نفسه بهمس.. أعتقد أن سماع الخبر وهي على هذه الحال سيجهضها أو يقتلها.

مدَّ موسى يده في جيبه ودفع إليه النقود ثم أخذ يعدو تجاه الخيمة.. جلس "حمدان" وقد أمسك مبسم النرجيلة يمتصها وعيناه تسوحان بين زبائن المقهى.. وأخذ يهمس لنفسه (لقد صدقت دلال.. إنه يقود زمرة من مهربي الحشيش والقوادين واللصوص.. وأروع ما في القصة أنني اكتشفت لمن يورد بضاعته.. علي فقط أن أعرف الطبيب كيما أعمل كالمنشار.. فاقص هذا في غدوي.. وأقطع ذاك في رواحي) ثم قام من فوره وأطلق ضحكة عالية جعلت زبائن المقهى ينظرون إليه بارتياب.



الســـر:

عادت محطمة النفس والفؤاد.. دارى "موسى" خجله من نفسه بأن توارى عن ناظريها بعد أن أودعها الخيمة.. أخذت تئن متوجعة تلعن الدنيا التي ترزقها بالطفل ثم تنتزعه منها.. ثم تذكرت فجأة ربها فقالت في سرها.. إنه هو الذي يمنح ويأخذ.. جاءتها النسوة معزيات وأخذن يسرين عنها لكنها

ظلت واجمة حتى غادرنها وهن على حال من الكآبة..

عاد "موسى" إلى المقهى بعد غيابه عنه لأيام.. في الطريق إليها لمعت في عينيه أسنان العسكري الصفراء لكنه حول نظره مسرعًا وحث الخطى حيث اقتعد كرسيًا على الرصيف وصفق بيديه.. اختلطت عليه أحداث الأمس حتى لم يعد يميزها.. قال له الطبيب ها قد جئت ثانية.. منذ مدة والبيك يطلب طفلاً آخر يسلي وحدة الأول.. وقد ازداد المبلغ خمسة آلاف أخرى.. فما رأيك.. فكر "موسى" قليلاً، قال في سره، إن الولد في النهاية يعود لأهله.. فلا بأس من أن يلاقي الآخر حياة رغدة مثل أخيه.. وافق دون أن يبدي أي اعتراض.. وعندما أبلغها الطبيب موت طفلها كان "موسى" يخلل شعرها بأصابعه ويعزيها ويطلب إليها أن تتمسك بالصبر فعسى أن يمنحها الله طفلاً آخر تقر به عيناها.. بكت طويلاً.. ثم استسلمت لراحته وهو يمررها على خدها بحنان.

جاء إليه النادل ورص الجمر على رأس النرجيلة.. ثم ذهب.. سحب العسكري حمدان كرسيًا وجلس إلى جانب "موسى" فانتفض هذا وقال..

- أأنت ثانية يا وجه الشؤم..

قال "حمدان" وابتسامته لا تفارقه:

- أنت الآن رجل غني لا أستطيع الرد عليك.. بإمكانك قتلي ودفع عشرة آلاف ليرة فتخرج من السجن مثل شيخ الشباب..

أصابت "موسى" قشعريرة وخوف.. أخذ ينتفض كعصفور مقرور (إذن فابن الحرام يعرف ثمن الطفل) قال "حمدان".

- لا تغضب يا "موسى".. سنلتقي الليلة عند دلال البصارة.. لقد أعددت لك احتفالاً يليق بالمقام كي تنسى طفلك المتوفي..

قال ذلك وغمز بعينه وانصرف..

ظل "موسى" ساهمًا يفكر فيما قاله "حمدان".. ماذا لو ذهب إليها وأخبرها أن طفليها بيعا كي يشبع "موسى" بطنه.. ستحثو التراب على رأسها من الخيمة حتى المستشفى وهناك تنشب أظافرها في رقبة الطبيب حتى يدلها على طفليها.. ثم يعلم المخيم بما جرى فيبصق عليّ الناس أينما حللت.. آه لو أن صاعقة من السماء انقضت على رأسك يا "حمدان" فأجلس في خيمتي مرتاح البال لا يعكر صفوي أحد..

راعه أن المساء قد حلَّ وهو على جلسته تلك.. شعر بالجوع فقام من فوره وحث خطاه نحو الخيمة.. لم تحدثه ولم يحدثها.. سكب طعامه بنفسه وأخذ يمضغ اللقمات كأنما يمضغ لحمه.. قال لها إنه سيحضر لها في الغد بعض الطعام..

وتابع .. قد عثرت على عمل ربما نكسب منه أودنا فلا تبتئسي .. لكنها لم تجبه .. ظل على حاله من الغوص في ذكريات طفليه اللذين باعمها بأرخص الأسعار على حد ما فكر به .. وعندما خرج من الخيمة أخذ يقدم خطوة ويؤخر أخرى نحو بيت دلال البصارة.

(ماذا لو لم أذهب.. سيذيع السر.. فليكن.. سأرحل إلى مخيم آخر لا أعرف فيه "حمدان" ولا أعرف مَن على شاكلته .. لكنهم يقولون إن في كل مخيم حمدانًا آخر لا يختلف كثيرًا عن حمداننا هذا .. لعنه الله .. سيلاحقني طيفه أينما حللت).

وجد نفسه أمام بيت دلال.. تنحنح تعبيرًا عن قدومه فاخترقت أنفه رائحة البخور النفاذة. دخل مسرعًا فطوقه "حمدان" وقبله .. اشتم من فمه رائحة عرق رخيص فأصابته حالة من الغثيان.. ووضع يده على بطنه تعبيرًا عن قرفه .. ضحك "حمدان" وقال:

- قد كنا نتحدث عن مواهبك التي لم يكتشفها أحد غيري..

رأى نفسه محاطًا بوجوه ليست غريبة عنه من رجالة المخيم ووجوه أخرى لم يعرفها .. قال أحدهم وهو يبتسم:

- تفضَّل يا "موسى" نحن أولاد (كار) واحد.. وقد أثنينا جميعًا على مواهبك قبل حضورك..

قال آخر:

- ورغـم أننا نعرف كلَّ مَـن في الكار إلا أننا عجزنا عن اكتشافك.. لولا هذا الحمدان لما توصلنا إليك.

قال ثالث وعلامات الجد على وجهه:

- لندخل فيما جئنا من أجله. إذا ما أدمجنا تجارتنا ارتقينا بها إلى المستوى الذي نريد..

قال موسى:

-عم تتحدثون.. إنني لا أفهم شيئًا..

قال "حمدان":

- ولو يا موسى.. السر في بئر عميقة.. ولولا مظاهر العز التي بدت على جيبك لما اكتشفتك.. وبدلاً من أن تعرِّض نفسك للمخاطر في توزيع (البضاعة) فدعها لي.. سأقوم بتوزيعها بنفسي فلا يشك بي أحد..

سرح "موسى" بنظره عبر الوجوه التي تحدثت إليه.. فكر قليلا.. أدرك أن "حمدان" لا يعرف شيئًا عن سره.. وفجأة انطلقت منه عاصفة من الضحك المجنون حتى كاد يغمى عليه.. وجموا جميعًا.. لكنه بعد لحظة تمالك نفسه وقال:

- قبل أن نبدأ أود أن أعرف تفاصيل اكتشافي.. هيا يا "حمدان"..

قال حمدان:

- لمَ لا نؤجل هذا الموضوع إلى وقت آخر.. نبحث الآن أمور العمل وغدًا يوم آخر.

قال "موسى" بغرور ظاهر:

- أنت تعرف أننا نتعاطى المهن السرية.. فإن اكتشفتني اليوم فلا بد أن يكتشفني غيرك غدًا.. أريد أن أعرف الثغرات التي توصلت منها إلى معرفتي كي أسدها ونتفادى العيون في المستقبل.

ضحك "حمدان" وقال:

– حسن.. أنت رجل حريص وأنا أقدر ذلك لك.. فحرصك يجعلنا جميعًا في أمان فلا تنتبه لنا الدولة..

قال "موسى":

ولكنك أنت الدولة يا "حمدان".. هل تخاف من نفسك..

قال "حمدان":

الدولة تحتويني عندما أكون في وظيفتي.. ولكني لست منها عندما أكون خارج الوظيفة في وقت راحتي.. أنا الآن من

(زلم) موسى ولست من زلم (البيك)..

عاد "موسى" ثانية إلى الضحك.. قال أحدهم.. يبدو أن حجم تجارتنا لا تعجبه.. صحيح أننا في البداية.. ولكن هناك صفقة في الطريق ستغنينا إلى الأبد.. وبما أن النعمة ظاهرة عليه فإني أول من يوافق على أن يكون رئيسنا.. هو الذي يخطط وهو الذي يأمر وما علينا إلا أن ننفذ ما يقوله..

قال موسى باشمئزاز:

- ولكن كيف تسوقون البضاعة؟

أجاب "حمدان":

- دع عنك هذا.. أنا أقوم بالتسويق.. ما يكسبه أهل المخيم بالنهار نكسبه نحن في الليل.

ضحكوا جميعًا.. قال "موسى" في سره.. إذن فهم يخططون لكي يعيش المخيم في حال من الخدر لأعوام طويلة.. ثم قال لـ"حمدان":

- لم تحدثني يا حمدان.. كيف اكتشفت تجارتي..

- أعرف عنك الكثير.. وأعرف أنك تورد البضاعة لطبيب يحولها إلى عقاقير طبية ممنوعة.

ابتسم "موسى" وقال:

- هذا حسن.... إذا فأنت تعرف نصف الطريق فقط..

- ونصفها الآخر في جيبي.. أعرف التاجر الذي تتعامل معه ولكن هذا موضوع آخر.

- لم تقل غير تفاصيل تافهة لا تغني.. إنني أتطلع إلى إيضاح أكثر.

- الحقيقة أن دلال البصارة كانت دليلي إليك.

صرخ موسى بأعلى صوته فجاءت "دلال" وقد زينت صدرها بسبحة طويلة..

- اجلسي أيتها المشعوذة القوادة.

- لا تمزح بمثل هذه الألفاظ النجسة.. إنما أنا من أهل الله أعطاني سره فعرفت عن الناس الكثير.. ودليل ذلك أنني أعلم لماذا حضر (جنابك) إلى خيمتي هذه الليلة دون أن ترسل مَن يقول لي مسبقًا عن قدومك..

- وماذا تعرفين عني؟

- أعرف أنك تقود عصابة للتهريب وأشياء أخرى.

ضحك "موسى" ببلاهة.

- وما هي الأشياء الأخرى؟

- أأقولها علانية ؟

- نعم.

- وعصابة أخرى من محترفي القوادة وبائعي المسروقات التي تورد إليك.

صعد الدم فجأة إلى رأسه.. قام من فوره ولطمها على وجهها.. صرخت بألم فقال.

- لقد لطمتك اليوم بيدي.. وغدًا سأمزق وجوهكم بالخنجر إن تجرأ أحدكم واعترض طريقي.

ثم نظر إلى "حمدان" الذي كان واجمًا لا يدري كيف ابتدأ النقاش وكيف انتهى..

قال "موسى":

- أنت يا "حمدان" يا ابن العاهرة.. إن (ديتك) في جيبي.. سأقتلك إن تجرأت ثانية على دعوتي إلى هؤلاء اللصوص..

- وبين نظرات الذهول والاستنكار أسرع عائدًا إلى خيمته.



(٢)

أيليـــــا

خبت عيون المخيم وادلهم الليل.. وفي الخيمة المنطوية على أحزان النهار تلاصق الصغار حتى نضحت أجسادهم بالعرق.. جاءت إليه زوجته ودمعة تتلوى في عينيها.. نظر إليها طويلاً ثم أخذ يلف سيجارته ببطء وروية.. تتابعت أحداث نهار مرعب حرمه النوم طيلة ليلته.

قال لابنه: أنت كبير إخوتك. قد بلغت الثانية عشرة.. لا طاقة لي بأن أدفع لك مصاريف المدرسة إذا ما يسر لنا الله أن تتعلم بعد انهائك الابتدائية. فاخرج إلى الحياة شرنقة تكبر وتشق طريقها نحو المجهول..

أطرق "إيليا" وأخذ يفكر طويلاً.. في البدء عمل "حنا" صبيًا في مقهى ليس لزبائنها من عمل إلا شتم الحياة ولوك سيرة الناس والجلوس حول الأراجيل.. أمضى نهاره الأول وجزءًا من الليل واقفًا على قدميه كشجرة تقوم على رصيف مبتل.. وعندما عاد إلى الخيمة كان جسده المنهك يحكي تعب اليوم بأنين صامت.. لم يعد للمقهى ثانية.. عمل أجيرًا في فرن

يحمل على رأسه الخبز ليوصله إلى الأدوار العليا..

كان عمله منضنيًا متعبًا.. لكنه رأى فيه فسحة تمكِّنه من أن ينظر إلى الأطفال وهم يلهون في الطريق.. يجلس دقائق في ظل الجدران ويسبح معهم عبر قفزات طفولية بريئة.. ثم يدركه الوقت فينهض حاملاً بضاعة الفرن ليقذفها إلى بيت صاحبها ثم يعود ثانية.. وقد تكدست أمامه أرغفة الخبز تكوي راحتيه وهو يرصها متقاربة ليبدأ رحلته من جديد.. وكانت الخيمة تستقبل الخبز الطازج في كل ليلة وتعلن فرحتها وهي تقضمه.

لكن الحال جرى على ما لا يشتهي "إيليا" وزوجته والخيمة.. فقد جاءوا اليوم (بحنا) ملفوفًا بقطعة قماش بيضاء يغطيها دم متخثر.. كان واضحًا أن "حنا" يرقد فيها دون رأس.. صرخت زوجة "إيليا" برعب.. وقام الرجل إلى اللفافة يحاول فكَّها فمنعه بعض الرجال.. وحكى الطفل الذي كان يرقب "حنا" وهو يحمل الخبز إلى الدور الخامس من بنايتهم.. كيف تحرك فيه المصعد فجأة عندما دس رأسه من خلال الزجاج المكسور ليأخذ رأسه وجزءًا من أكتافه.

صاح "إيليا" بألم.. وتحول وجه الخيمة إلى كالح يصرخ فيه الأطفال وتضرب فيه أم حنا وجهها بفزع ورعب رهيبين.. أما

إيليا فقد تحجرت في عينيه الدموع وأخذ يرقب جثة ابنه بهلع .

توارد الكثير من أهل المخيم إلى بيت "إيليا" .. كان الصراخ والنحيب والعويل قد انتشر على أطراف المخيم فبات الناس يظنون أن العسكر قد فعلوها ثانية بعد أن استذكروا كيف قام العسكر فيما مضى من الأشهر باختراق الخيام وتفتيشها تفتيشًا دقيقًا بحجة أن لديهم جيرانًا وأعوانا يزورونهم في الليل وربما قاموا بما يمكن أن يكون ضد الدولة .. وكيف أنهم أخرجوا الفراش والحصر والملابس من كل خيمة إلى قارعة الطريق فأمطرت السماء وفسد كل شيء حتى الأغطية .. وبات الناس لياليهم يعانون البرد والمطر والمسغبة والجوع والعري والحياة القاسية فمات ثلاثة من أطفال المخيم في تلك الفجيعة .. وذهب كثيرٌ منهم إلى عيادة دكتور المخيم الذين أوكل ممرضًا بمداواة الناس فإذا بهم يقاسون آلام المرض أيامًا طويلة ..

وهكذا حمل بعض الناس جثة "حنا" بين الصراخ والنحيب والفزع لتودع المقبرة ثم عادوا إلى الخيمة واجمين .

لف "إيليا" سيجارة أخرى وامتصها بشوق .. رمقته بنظرة حزينة فحول نظره إلى الليل الذي يطل من شقوق الخيمة بفزع :

- هذا ليل الفقراء يا أم حنا .. مشحون بالتيه والضباب ..

ندت من عينيها دمعة حارقة ثم تتابع الدمع يجري كنهر ليس له ضوابط..

- لو أنه مات مريضًا لهان الأمر..

أخذت تشهق وقد وصل الدمع إلى حلقومها.. لكنها ميتة على أي حال.. لم يتعذب كثيرًا.

ارتفع صوتها وطلبت إليه ألا يواصل حديثه لكنه تجاهلها.

(والخبز يا حنا.. من يطعمنا.. من لنا غيرك ننتظره ليدخل الخيمة فرحًا وبخار الخبز يتكاثف حول كيسه الشمعي ويحوله إلى رذاذ يشبه عرقك وأنت تصعد إلى الأدوار العليا.

- بربك كف عن هذا الحديث.

- لكنه مات يا أم حنا.. دعينا نتعزى بذكره.

غرقت في دمعها ثانية.. ثم توالى الليل يرسل على صدر الخيمة خيوطًا من ندى بللت القماش فسرت الرطوبة إلى الداخل.. مضت الساعات وهي تضع يدها على خدها وسيجارة "إيليا" لا تكاد تنطفئ لتأتي أخرى تطرد الحزن من على وجهه المتعب.

في اليوم التالي، جاء الجيران.. مهران، أحمد.. ثم تبعهما غسان.. لكن كلمات التعزية التي رآها "إيليا" مواسية لم تستطع نزع الحزن من نفسه.

- إنه قدر الله فدع عنك الأحزان.

- لكن "حنا" كان يدي اليمنى.. ألا تحزنون إذا فقدَ أحدكم يده؟!

- أمامك مهمة أشقى من الحزن وأكبر من المصيبة.. إن أفواه الأطفال بحاجة للخبز.

- لكنه كان يساعدني.. آه لو نظرتموه وهو يطعمني من خبزه وقد تحولت بين يديه إلى طفل مدلل.

- لا يحسن بك أن تترك عملك وتغرق في الأحزان.

انتابت "إيليا" نوبة غضب فجائية:

- هل تعتقدون أن القمامة في المخيم قد كثرت.. منذ سنين و"إيليا" يجر عربته أمامه ورائحة العفن تخترق رأسه برعونة.. يمر أمام البيوت يطلب القمامة ثم يودعها محرقة المخيم لإبعاد المرض عن أجساد أطفالكم.. ألا يحق لإيليا أن يحزن على ابنه فيجلس في الخيمة كئيبًا ليوم أو يومين.

صمتوا جميعًا.. لكن "أحمد" همس بعد لأي.

- نحن كما أنت يا "إيليا". نحزن لحزنك ونبتهج لفرحك.. لكنا نرى أن العمل ينسيك بعض همومك.

أضاف "غسان":

- ثم لا تنسى أن وكالة الغوث ستقطع من راتبك الأيام التي لم تعمل بها.. وهذا يؤثر على دخلك البسيط.

- تابع آخر.. وربما وجدوا أن القمامة قد كثرت نتيجة توقفك عن العمل فاختاروا آخر غيرك لهذه المهمة.. فتخسر وظيفتك ورزقك..

صاح "إيليا":

- فليكن.. خمسون ليرة في الشهر فليضعوها في جيوبهم.. يا ناس يا عالم.. أريد أن احزن فدعوا نصائحكم وارحلوا.. لا أريدكم في خيمتي..

نظروا إلى وجهه باسَى.. همس "مهران" إلى صاحبيه..

- دعوه في حاله وسنعود إليه عصر اليوم.. ربما كان أحسن حالا فنستطيع محادثته.

قاموا من فورهم متجهين خارج الخيمة.. جلس "إيليا" بعينين محمرتين يلف سجائره بعصبية.

آه يا "حنا".. حملتك على ظهري عبر القصف كي تنقذني من شظف العيش وظلم العالم.. واجتزت بك كل بوابات العذاب حتى وصلت سليمًا إلى الخيمة.. لكنك بعد العذاب تركتني نهبًا للعذاب.

اشتدت حرارة الشمس تلطم ظهر الخيمة.. وظل "إيليا" على حاله يحلم أن يأتي إليه "حنا" حاملاً أرغفة الخبز على ظهره.. أما زوجته فقد أسندت ظهرها إلى عامود الخيمة وظلت تئن كمن اجتمعت في جسدها كل أمراض المخيم.. لكن الصغار كانوا يبكون تارة ويضحكون أخرى.. يتركون الخيمة.. يلعبون ثم يعودون.. وخلال لهوهم كانت آخر دفعة من خبز "حنا" تظهر في أيديهم وهم يقضمونها بشغف.



رحل "إيليا" مع الليل في كل ليلة.. هام على وجهه بين الخيام وجلس طويلاً في المقبرة.. تعرف إلى الخيام التي يقف على أبوابها أناس ينادونك كلما مررت بهم.. وعرف كل الذين يضربون زوجاتهم وتضربهم زوجاتهم.. لكن الخبز في يد "إيليا" كان أثمن من كل شيء.

يسوق أمامه عربة القمامة يعبؤها ثم يفرغها في المحرقة.. وكأنما تسيره آلة لا ينفد وقودها.. وكثيرًا ما تجاوز وقته فلا يعود إلى خيمته إلا عندما يأتيه أحد أطفاله ليذكِّره أن الشمس قد غربت.

يعود "إيليا" ذات غروب ليجد ورقة صفراء ملصقة على قماش الخيمة.. يقرأها.. عليك مراجعة المركز فورًا.. يسبب

ويلعن لكن صوته لا يتجاوز حنجرته.. حمل "إيليا" جسده واتجه نحو المركز.. كانوا كعادتهم يلعبون الورق.. ما إن رمقه قائد المركز حتى استمهله دقائق كيما ينهوا لعبتهم.. مضت الدقائق بطيئة ثقيلة.. وضع على فمه قفلاً ومزلاجًا فلم يتكلم.. وعندما انتهى اللاعبون كانت قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً.

- أنت يا "إيليا".. مضى وقت طويل مذ بلغتك أن تغادر هذا المخيم إلى آخر.

- يا سيدي كنت في بلدي أعيش بين هؤلاء دون أن يسألني أحد عن هويتي أو ديني.

- كان هذا في بلدك.. نحن نفرزكم هنا حتى لا تحدث بينكم مشاحنات طائفية.

- الدين لله يا سيدي.. أنا أؤمن به كما يؤمن به أولئك.

صرخ قائد المركز:

- الحكومة لا تريد أن تختلطوا معًا.. ثم إن طينتكم تختلف عن طينتهم.

- ماذا تعني يا سيدي؟

- سواء فهمت أم لم تفهم.. أنت حر.. لكني أطلب إليك أن

تنفذ أمر الحكومة.. لا نريد لكم الاختلاط معًا.. لكم خيامكم ولهم خيامهم..

ثم تابع: هذا أمر من الحكومة وعلينا أن ننفذه.. فإن لم ترغبوا سننفذه بالقوة..

- ولكن ما شأني بالحكومة.. أنا أسكن حيث أجد راحتي.

- كلمة واحدة.. إما أن ترحل عن هذا المخيم إلى مخيم آخر أو أرحلك بالقوة.

- حسنًا يا سيدي لا تغضب.. سوف أرحل.

رمقه قائد المركز بنظرات نارية.. غادر "إيليا" وهو يتعثر بخطاه.. راودته نفسه فجاء إلى "موسى" كي يعرض الأمر عليه ويستشيره بما جد من أمر.. همس "موسى" في أذن "إيليا" بعض الكلمات.. وعند الصبح عاد "إيليا" إلى قائد المركز وهو يحمل ورقة من (البيك) حامي حمى المنطقة كلها يأمر فيها قائد المركز أن يبقي "إيليا" في المخيم دون أن يزعجه أحد.. وضع قائد المركز الورقة على رأسه تعبيرًا عن احترامه للبيك وقال لإيليا: أنت الآن تحت حمايتي.. غادر "إيليا" وهو يفكر بالعشرين ليرة التي دفعها ثمنًا لبقائه..

وخلال الأشهر التي تلت كان "إيليا" يسمع حكايات عجيبة، الشاب الذي أعماه السكر فسحب مسدسه وأطلق النار على

ابن الجيران فقتله، ثم رآه الناس يتجول في اليوم التالي في الشوارع دون أن يعترض طريقه أحد.. تجار المخدرات والأفيون الذين يعرضونه علنًا تحت حماية الشرطة، المحكومون الذين يخرجون من السجون، المناطق التي يغلقها العابثون في الليل، (الخوة) التي تفرض على أصحاب المحلات والمقاهي.. كان شبح (البيك) يكمن خلف كل حادثة وبعد كل ذلك عزم "إيليا" أن يقتسم من رغيف الخبز جزءًا يخبئه في حصالة أمينة يخصصه للبيك وأزلامه عندما تدعو الحاجة.



عدَّ "إيليا" نقوده آخر الشهر واغتم قليلاً.. أخذ يقسِّمها على دائنيه ولم يبقَ له غير القليل.. غير أنه عزم على بيع إعاشته التي يأخذها من وكالة الغوث ويشتري للأطفال ثيابًا مقبولة.. إذ كانت أسمالهم وهم يلعبون مع الأطفال تعذبه..

أخذ دوره في صف طويل.. حمل بيمناه بطاقة التموين وبالأخرى أكياسًا ورقية وأخرى قماشية استعدادًا لملئها.

كان العسكري "حمدان" يدور بعصاه على الصف الطويل فيقوِّم اعوجاجه تارة ويسب ويلعن تارة أخرى.. و"إيليا" الذي كان معروفًا بين الجمع يفكر فيما قاله ولده الذي قرب أن ينضج.

- يا أبي.. الأولاد في المدرسة يعيرونني بالحفاء وقد بلغت الحادية عشرة.

- اصبر يا "جورج".. سأشتري لك حذاء جديدًا قبل موسم الشتاء.

- منذ مدة طويلة والمدرس يطلب إلي أن أكسو قدمي ولكني أعرف حالك.

تنهد "إيليا" وقال:

- حتى أطفالنا أصبحوا كبارًا قبل أوانهم.

أضاف بشيء من الجدية:

- حسن يا "جورج".. سوف أشتري لك حذاء جديدًا..

استفاق على صوت جاره "غسان" وهو يهمس له:

- لديك عمل كثير هذه الأيام.. فلتأخذ مكاني في الصف ولا تراجع قليلاً..

- في البدء رفض أن يأخذ دور غيره.. لكنه مع إصرار "غسان" قبل بالأمر.. ثم تنبه الجميع إلى "إيليا" فأخذوا يقدمونه حتى اقترب من مكان توزيع المؤن.. لكن عين "حمدان" التي لا يفتحها إلا عندما يريد جاءت إلى "إيليا" وحدجته بنظرة قاسية. وقال حمدان:

– لقد خلقت جوًا من الفوضى لن يهدأ إلا إذا رجعت إلى مكانك الأول.

- لكنهم قدموني يا "حمدان" ولم أرغمهم على ذلك..

- أتناديني باسمي المجرد يا ابن الـ..

صاح الجميع بصوت واحد..:

- نحن قبلنا بالأمر فدعه يا "حمدان"..

تطاير الشرر من عيني "حمدان".. جاء إلى "إيليا" ولطمه على وجهه بقسوة.. تمايل "إيليا" ثم وقع على الأرض.. نهض بتثاقل وتلوت في عينيه دمعة لم تسقط.. ثم حمل أوعية التموين واتجه نحو الخيمة.. لحقه بعضهم احتجاجًا فأمسك "حمدان" ورقة وقلمًا وسجل أسماء المنسحبين وحلف أغلظ الأيمان أن يحرمهم من تموينهم كي يموت أطفالهم جوعًا.

في الطريق إلى الخيمة بكى "إيليا".. لكنه عندما وصل إليها مسح دموعه فاستقبله "جورج" ضاحكًا:

- متى تذهب للسوق لشراء الحذاء؟

- غدًا يا ولدي إني متعب هذا اليوم.

احتج "جورج" بشدة لكنه توقف عن متابعة الكلام عندما دخل إلى الخيمة ثلاثة رجال.. ما إن رآهم "إيليا" حتى طفرت

الدموع من عينيه.. ومن خلال الحديث علم "جـورج" أن "حمدان" قد أهان ولده بقسوة.. عض شفته السفلى حتى أدماها ثم غادر الخيمة.



مضت أيام وأيام..واختفى "حمدان" فجأة.. افتقده أهل المخيم وسرت الشائعات كالنار في الهشيم.. بعضهم قال إن "حمدان" قد اكتشفته الحكومة وهو يهرِّب المخدرات لبعض المساجين فكان أن سجنوه في مكان بعيد لا تصل إليه العيون.. البعض الآخر قال: الحكومة نفسها تهرب المخدرات فلماذا يسجنون أحد المهربين.. إن المهربين كلهم من الحكومة أو ينتمون إلى محاسيبها.. بعض ثالث حلف أغلظ الأيمان أن "حمدان" قُتل.. وأن الإتاوات التي كان يستأثر بها ولا يعطي أصدقاءه بعضها قد كانت السبب في اختفائه.. بعض ثالث أو رابع قال: لقد غزا "حمدان" امرأة أحد المتنفذين في غياب زوجها ثم اكتشف الـزوج ذلك فقام بدفنه حيًا.. وتوالت التخمينات عمن أخفى "حمدان" أو أسباب اختفائه..

في صباح أحد الأيام طوق الدرك المخيم.. بحثوا في كل خيمة وتحت كل غطاء.. بعثروا كل حاجيات الخيام وحطموا ما يمكن تحطيمه.. رصدوا جوائز مالية لمن يدلهم على مكانه..

بثوا العيون ووعـدوا جواسيسهم ومحاسيبهم بالمكافآت والمنح إذا ما عثروا عليه أو على طرف خيط يدلهم أين اختفى.

وخلال البحث سُجن وعُذب مَن اتّهم بإخفائه غير أنهم كانوا يثبتون براءتهم عندما ترد إلى المراكز أوراق البيك التي دفع أهلوهم ثمنها من قوتهم.

دلال البصارة رصدت جزءًا من سحرها وقسمًا من مالها لمن يدلها على "حمدان".. "موسى" أولم بخروف كامل ودعا إليه الأصدقاء امتنانًا لمن أخفى "حمدان".. وعندما سألوه عن سبب الوليمة قال إنها هدية لروح طفليه اللذين توفيا منذ زمن.. تجار الأفيون غضبوا ولعنوا كل أهل المخيم.. فرحت النساء وزغرد بعضهن.. عقد الرجال مجالسهم حول "حمدان" وسلوكه. لاك الناس سيرته فحملوه كل مآسي المخيم وما وصل إليه الناس من فقر ومن دفع إتاوات لا يستطيعونها.. انتشر كل ذلك كأنما كان "حمدان" هو الذي قاد المهربين وتجار الممنوعات واللصوص والحرامية وما فعلوه في المخيم وفي غير المخيم. وظلت سيرة حمدان مثل مضغ الطعام يلوكها الناس كلما فعل أحدهم شيئًا مشينًا يلصقه بالمختفي..

ازدادت الشائعات تحكي قصصًا عن "حمدان" واختفائه.. البعض الآخر روى أن "حمدان" تورط مع تجار الحشيش

بصفقة كبيرة فقتلوه كيما يستفيدوا من حصته.. وعندما علم هؤلاء بالأمر أشاعوا أن أهل المخيم قتلوه؛ لأنه يقتحم خيام الأرامل في الليل.. ويقضي معهن أوقاتًا طويلة..وبعد مضي أسابيع قليلة نسي الناس حمدان وقصته.. لم يتغير في المخيم سوى شيء واحد.. أصبحت الشرطة تعامل الناس بشيء من الاحترام.. أوقفوا عمليات الإهانة في الشوارع واقتصرت على من يسلمه حظه للمركز.. أخذوا يسيرون دورياتهم جماعية داخل المخيم.



قضى "جورج" وقتًا ممتعًا مع أطفال المدرسة.. كان حذاؤه اللماع يغريه بأن يبقى في الشوارع حتى تغرب الشمس ويختفي الحذاء عن عيون المارة.. يعود بعدها للخيمة. يحتضن الحذاء كطفل رضيع ثم يمدده إلى جانبه تحت الفراش ويغفو.. لكن الليل مجرم ترقد فيه روح "حمدان" الذي مات أو لم يمت.. ينام "جورج" واللطمة تهوي على وجه أبيه إيليا فيصرخ..

- آه يا ولدي.. لطمني حمدان ولن أغفرها له.

يقول "جورج":

- نم مطمئنًا يا أبي.. سوف يطعنه "جورج" بسكين في صدره.

- لكنك صغير و"حمدان" مسلح.

- بالحيلة سوف أقتله.. سوف أقتله..

يصرخ.. تأتي إليه أمه وتخلل شعره فينظر إلى وجهها بذهول:

- كنت تحلم يا ولدي مَن هو الذي ستقتله؟

- لا شيء يا أمي.. إنه كابوس مرعب.

تضحك وتربت على صدره ثانية فيغفو.

في العطلة الصيفية عمل "جورج" صبيًا في مقهى المخيم.. سمع بعضهم يهمس للبعض الآخر.. ثم ورد اسمه بنعومة فنظر إلى عيونهم بارتياب..ابتسموا له دعوه فجاء إليهم على استحياء.

- هذه ليرة واذهب إلى حمدان وأبلغه أن يقابلنا عند العاشرة ليلاً على شاطئ البحر.. قل له في المكان المعهود..

طار "جورج" كالبرق إلى المركز.. لم يجد فيه غير "حمدان".. أبلغه الرسالة.. وعند المساء حكى لوالده ما حدث فقال "إيليا":

- اسمع يا "جورج".. هؤلاء شلة من المهربين فابتعد عنهم ولا تستمع إليهم.

قضى "جورج" ليله وهو يفكر.. كانت اللطمة على وجه أبيه تحكي قصة العذاب الذي لم يحتمله.. كتم ابتسامته وهو يحدق في قماش الخيمة.

بعد أيام قبض ليرة أخرى وأخفاها.. ثم تابع "حمدان" وهو يعد خطاه نحو شاطئ البحر.. وعن بُعد شاهد بعض الرجال يتركون زورقًا صغيرًا على الشاطئ ويتجهون إليه .. قال الصغير لنفسه.. ما قاله أبي صحيح.. لقد سلموه البضاعة.. عاد "جورج" إلى خيمته فعنفه والده على تأخره.. إلا أن ابتسامته كانت تتسع لتنفرد على كل مساحة الخيمة.



خلال أيام أصبح البحر صديق "جورج".. ما إن تواتيه فرصة حتى يذهب إلى الشاطئ ويلطم الموج بيديه كمجذافين صغيرين حتى تعلم السباحة.. لكن "جورج" وجد صعوبة كبيرة في الحصول على إطار مطاطي ليدهنه باللون الأبيض تمهيدًا لتنفيذ ما اعتزم عليه.. وأخيرًا لجأ إلى السرقة.

مرت فترة ليست بالقصيرة ينتظر تعليمات المهربين إلى "حمدان".. وأخيرًا جاء الفرج.. جلسوا إلى مكانهم في المقهى يتهامسون ثم نظروا إليه بود فابتسم.. فليأتنا الليلة عند الثانية عشرة.. قل له وصلت البضاعة..

- حسن لكني أريد ليرة أخرى.

تفرسوا وجوه بعضهم ثم ضحكوا.. قال أحدهم.. لك ذلك ولكن لا تتأخر.

نفض "جورج" ثيابة المتسخة وعاد إلى الخيمة مبكرًا.. اصطحب إطاره المطاطي إلى شاطئ البحر.. وهناك نفخه وربطه بحجر كبير ثم أودعه البحر على بُعد غير قليل.. عاد إلى الشاطئ ونظر إلى الإطار فألفاه يتمايل مع الموج كعروس تميس متخاتلة حيية.. ابتسم ثم غادر.. وفي الطريق كانت رموز خطته تتحلل إلى وقائع ملموسة فيبتسم.. ذهب إلى "حمدان" وأبلغه أن يكون في المكان المعهود عند العاشرة.. ولينظر إلى الشاطئ عن قرب ليرى البضاعة جاهزة فوق الموج.. فرك "حمدان" راحتيه جذلاً وقال:

– هذه ليرة أخرى أيها المهرب الصغير.

- شكرًا يا سيد حمدان.. لقد أعطوني ليرة زيادة.

- وماذا يهم.. أنت رسولنا ومن الواجب إكرام الرسول.

- دس "جورج" الليرة في جيبه وابتسم ثم أخذ عقله الصغير يعمل بسرعة..

- سيأتي عند العاشرة فيرى الإطار عن بُعد فيسيل لعابه..

ومن فوق الصخرة سوف ألقمه حجرًا في رأسه يقضي عليه.. ثم أدفعه في حفرة قرب إحدى الصخور فلا يكتشفه إلا علماء الآثار بعد قرون.. وربما قرر هؤلاء أنهم عثروا على حيوان بحري هيكله كالبشر فتُجرى عليه تحليلات ومداولات وسوف يصبح مشهورًا بعد موته.

وخلال الدقائق التي كانت تمر متثاقلة كان التفاؤل يعم وجهه تارة ويعتريه الوجوم تارة أخرى.

ماذا لو سرق أحدهم الإطار قبل أن يصل العسكري "حمدان".. ماذا لو كان الموج قويًا فسحبه إلى الشاطئ مع ثقالته.. سوف ينكشف أمره فلا يثق به "حمدان".. لكنه سوف يتدارك ذلك ليعلن أنه أخطأ في إعطائه التوقيت الصحيح.. وأخيرًا ترك أمره للأقدار..

ما إن أسرعت نحو التاسعة والنصف حتى قادته خطاه إلى الشاطئ.. داعبت نسمة خفيفة وجهه الطفولي فأصابته قشعريرة.. داهمه خوف مفاجئ غير أنه تمالك وأخذ يمني نفسه بالقضاء على جذور الظلم في المخيم.. ثم انتقى صخرة فكمن إلى جانبها مقدرًا أن "حمدان" سيقف تحتها مباشرة.

أخيرًا جاء "حمدان".. سار نحو الشاطئ ببطء وروية.. نظر حوله كالمتوجس ثم توقف ليلقي نظرة متفحصة نحو البحر..

ثم زاغت خطاه إلى ناحية أخرى بعيدًا عن صخرة جورج.

اغتم "جورج" وأدرك أن خطته قد فشلت.. رأى "حمدان" يقف بعيدًا عنه وتلامس أقدامه الموج على الشاطئ.. أحس كأن الصخور تحدق في وجهه فارتعش.. لقد فشلت ولكني سأنجح في المرة القادمة.. حدق في الشبح الذي يقف على الشاطئ.. سمع دقات قلبه فضغط على صدره كي يكتمها.. وخلال دقائق قليلة تبدل كل شيء.. ضحك الماء وتماوج الرمل وانفرجت أسارير الصخور على الشاطئ.. عض "جورج" إصبعه فانغرس سنه فيه وسال الدم حتى وصل إلى رقبته.. كان يحدق إلى شبح "حمدان" وهو يخلع ملابسه قطعة إثر أخرى.. ثم يفك حزامه ويلقي بمسدسه على الرمل.. حسنًا يا "جورج".. ما عليك إلا أن تضغط على الزناد عندما يعود "حمدان" من رحلته البحرية..

ألقى "حمدان" بجسده نحو الموج وأخذ يلطمه بقوة.. قفز "جورج" إلى المسدس وانتزعه من جرابه وحدق إلى فوهته في العتمة.. هل تنطلق الرصاصة عندما أضغط على الزناد.. قد لا تنطلق فأخسر الجولة.. ليست لي خبرة في استعماله لكنها الفرصة التي لن تتكرر.. ودون أن يعي شيئًا ضغط على الزناد بقوة.. كان قاسيًا كالصخر لم يتحرك.. استحضر كل ذكرياته عما يقوله الناس عندما تنطلق الرصاصة..

بـدأت التخيلات تحوم سريعًا حـول عقل "جـورج"..
(كانت المسافة بعيدة.. والعبسي يجاهد للوصول إلى خيمته قبل أن يقبض عليه العسكر.. الناس يقفون ما بين الخيام ويصرخون.. والمخيم غدا ثكنة يطوقها الدرك من كل ناحية.. صرخ به "حمدان" قف.. لكن العبسي لم يقف.. سحب "حمدان" مسدسه ثم شد أقسامه الى الوراء بقوة.. وأطلق.. لم ير "جورج" بعدها سوى بقعة من الدم تغطي فخذ العبسي وتنزف بقوة..)

شد "جورج" أقسام المسدس فلم تصل إلى النهاية.. حاول مرة أخرى وثالثة.. وأخيرًا نجح فعادت الأقسام مسرعة إلى مكانها وقد ألقمت بيت النار طلقة.. ضحك الصغير بصوت سمعته أذناه.. سأجربه في جسده.

كمن إلى جانب ملابس "حمدان" وتمدد على الرمل:

- قف مكانك يا "حمدان".

انغرست قدما حمدان ما بين الرمل والماء.. لم يفه بكلمة.

- اتعرفني يا "حمدان"؟

ضحك حمدان وقال:

– جورج الصغير.. ما الذي أتى بك إلى البحر؟

- أنت يا "حمدان".. جئت لأقتلك.

تقدم "حمدان" بخطوات بطيئة نحوه.. صرخ فيه كي يقف فوقف..

- أتذكر آثار أصابعك على وجه إيليا الذي يجمع قمامة المخيم؟

ابتسم "حمدان" وأخذ يتقدم.. تراجع الصغير إلى الوراء خطوات.. كاد المسدس يسقط من يده.. وعندما أصبحت المسافة على بعد ذراع ضغط بقوة..

دوى في الظلام صوت مخيف.. وتهاوى أمام الصغير جسد كالعملاق أخذ يضرب الرمل بقدميه ويصرخ.. ثم وهن صوته فغدا كالفحيح.

(التقط "جورج" المسدس وجرابه ولم يجد ما يلفه به.. فخلع قميصه ولفه به.. كان الجو حارًا والصيف قد انتصف..)

جمد "جورج" في مكانه وأخذ العرق ينساب من جبينه كالشلال رغم حرارة الجو.. فكر في أن يهرب لكنه تذكر فجأة أن الجثة تناديه كي يدفنها.. استخدم أصابعه الصغيرة في حفر الرمال واستغرق ذلك بعض الوقت.. وعندما عاد إلى خيمته قبل أن تدق الساعة منتصف الليل.. كان يجر قدميه ويرتطم بحبال الخيام المنثورة على الزقاق دون انتظام.

(٣)

عود إلى نقطة الصفر

دلال

قد غدت خريفية الوجه والجسم والأسنان، كشجرة يتساقط عنها الورق فتعرى أيام الشتاء.. عندما كنت أخطو في شوارع حيفا تلاحقني العيون النهمة.. عروض ربيعية أرفضها ولا التفت إليها.. ويوم كفَّنوا زوجي جلست أراجع تاريخ حياتي.. وفجأة قفزت إلى ذاكرتي اللقمة.. لكنهم لم يمهلوني.. غدت حيفا جحيمًا تخرقها القنابل من كل جهة.. وعندما اتجهوا إلى الميناء تبعتهم تائهة لا أعرف وجهة.. وأخيرًا حطت بنا الأقدار في بيروت.

أه يا بيروت.. خيمة تقصفها الريح فتعلو تارة وتهبط أخرى كمظلة طيار أسقطت طائرته..

جلست أمام خيمتها تعتمد وجهها براحتيها.. مر بها أثناء جلوسها كثير من البشر.. وعلى مسمع منها كان الصغار يلهون فيخوضون في الوحل والماء الآسن.. وغير بعيد هوى أحدهم

بعصاه على كتف آخر فتجمهر الناس وأخذوا يتصايحون.. ثم اختلط الصراخ بالنحيب والضحكات وجاء الشرطي فكأنما انشقت الأرض وابتلعتهم.

ضربها الشرطي بقدمه فرفعت رأسها إليه.

- ماذا يجري هنا؟

- لا أعرف يا سيدي.. لقد سمعت صراخًا وعويلاً فقط.

- ألم تشاركي في المشاجرة التي جرت منذ دقائق؟

- نعم لم أشارك يا سيدي.. أنا امرأة لا أتدخل في شؤون الغير.

- لكنك رأيت.. فهلا دللتيني على بعضهم؟

- أقسم أنني لا أعرف شيئًا.

ركلها بقدمه ثانية وغادر.. قامت من فورها وتمددت فوق حصير مهترئ.. أحست بالجوع فبحثت عن لقمة جافة قضمتها.. جلست ثم وقفت ثم مشت وتأففت.. لعنت الدقائق والساعات والزمن.. واتهمتها جميعًا بالتآمر عليها ومحاولة إذلالها..

وفي خضم تأجج أفكارها سمعت صوتًا ناعمًا يرف على باب الخيمة.. أطلت فإذا بها أمام صبية حسناء قد أكل الطين

حواف ثوبها المتسخ.. كانت كزهرة ملقاة في سلة مهملات ضخمة.. ومنذ التقت النظرات أحست دلال أن باب الرزق قد فتح لها.. وأخذ عقلها يعمل سريعًا.. سوف تكون بطاقتها غالية الثمن.. خمس ليرات للمفلسين ومضاعفة للمترفين.. أفاقت على صوت الصبية:

- هل تسمحين لي بالتحدث إليك يا خالتي "دلال"؟

- تفضلي يا عين "دلال".. لكن كيف عرفتِ اسمي؟

- ولو يا خالتي.. نحن جيران.

- لا تؤاخذني يا حبيبتي.. أنا لا أزور ولا أُزار.

سحبت "دلال" الحصير إلى باب الخيمة.. ودعت ضيفتها للجلوس.. تحدثتا في أمور شتى.. وأثناء الحديث كانت "دلال" تلمح تارة وتصرح أخرى لكنها رأت عزوفًا وصدودًا وقد علمت أن الصبية تذوب حبًا بزوجها الشاب الذي اتهمته بمطاردة الحسناوات من بنات المخيم وابتعاده عنها.

برقت عينا "دلال" وقالت:

– الدواء بسيط يا.. ما اسمك يا صبية؟

وتداركت قبل أن تجيب الصبية.. أأنت زوجة جارنا "يوسف" ثم سكتت لحظة وقالت..

- هذا صحيح..اسمي "حنان".

- هل تؤمنين بالشيوخ وحملة السر يا بنية؟

- هذا ما جئت من أجله يا خالة.

- هذا رائع وحسن.

قامت من فورها والتقطت سبحة طويلة علقتها في رقبتها وقالت:

- قد وصلت يا بنية فاطمئني.. تعودين إلي غدًا ومعك بضع شعيرات منه فيعود إليك راكعًا مستغفرًا.

قالت "حنان" والدهشة في عينها:

- ألن نذهب إلى شيخ من حملة السر يا خالة.. قيل لي إنك تعرفين البعض؟

قالت ضاحكة.. قد لا تعرفين يا "حنان" أن خالتك "دلال" قد برعت في هذه الأمور وأصبحت شهرتها تعم الآفاق.. في بلدتي يا بنية كنت أستقبل أناسًا يأتون إلي من آخر الدنيا لأطلق لهم سراح سجين أو أعيد زوجًا إلى زوجته أو طفلاً ضائعًا إلى أهله..

دهشت "حنان" وبدت كأنما وجدت ضالتها.. قالت "دلال"..

- وأنا يا ابنتي لا أتقاضى أجرًا على عمل الخير.. لن آخذ منك فرنكًا واحدًا.

قالت "حنان":

- ولكني ادخرت عشر ليرات لهذا الغرض.

برقت عينا "دلال" وأخذت تغالب النهم وتدفع عنها غريزة الطمع وحب المال.. غير أن كلماتها كانت تحمل الأسى واللوعة وهي تتحدث عن الليرات العشر.. وأخيرًا نهضت "حنان" على أن تعود في الغد إلى الخيمة ومعها خصلة من شعر زوجها.

رقصت "دلال" داخل الخيمة حتى تعبت.. ثم استلقت على الحصير ومدت نظرها إلى سقف خيمتها.. قالت: سوف تكون "حنان" وزيرة الإعلام والدعاية...

وفي غضون أسابيع سوف يعرف كل المخيم أن الشيخة "دلال" تلقي الجبل على الجبل.. وعندها ستصبح الليرات مثل سنابل القمح تفرخ كل حبة عشرة.. فأحتاج إلى وزيرة للمال والخزينة.. ولا يستبعد بعد سنين أن أنشئ حكومة مستقلة فيها من الوزيرات أكثر مما لدى بعض الدول من وزراء.. ولسوف أغري بعضهن بالمال حتى يقعن في الشرك ولا يفتضح أمري.. أستدين من هذا لأسدد ذاك.. وآخذ من ذاك لأعطي تلك.. خلاصة القول سوف أنشئ إمبراطورية

مترامية الأطـراف والنهود لا تغيب عنها الآلاف المكتنزة بصنوف الليرات والذهب..

تعثر أحدهم بحبل الخيمة فوقفت في وسطها مبهوتة. لعنت المخيم وسكانه وأطفاله خاصة.. حدست أن الجوع سيقتلها إن لم تجد في جيبها عشر فرنكات ثمن رغيف الخبز.. علت سحنة الغضب وجهها وهي ترى إمبراطوريتها التي بنتها تتهاوى أمامها وتتحول إلى مزق متناثرة.



انتحت يمينًا إلى زاوية الخيمة فاحتضنتها "حنان".. تشنج وجهها وأشـارت إلى أن تجلس صاغرة دون كلام.. أطاعت والخوف يخرق جلد وجهها المتعب.

كان جمر الكانون يحدق في وجه "دلال" بوحشية.. فتحت كيسًا قماشيًا صغيرًا ونثرت من محتوياته على النار فتصاعد الدخان ينفث رائحة كريهة ثقيلة.. ثم أضافت حزمة من الشعر على الجمر فأصيبت "حنان" بغثيان مرهق وأمالت رأسها لتبتعد عن استنشاق الهواء المثقل بروائح مقيته.

قالت "دلال" من خلال تشنجاتها المرعبة دليني على زوجك العاق لأؤدبه.. ارتعدت فراص حنان وقالت.. لاأريد له الأذى.. كل ما أريده أن يبقى في الخيمة أسيري لا يطارد

بنات المخيم.. برقت عينا دلال وقالت لا.. لا.. عشر ليرات مبلغ كبير.. وهي فقيرة لا تملك غيرها.. سأحضر لكم بخورًا من نوع آخر.. ثم تشنجت ثانية وعلا الزبد شدقها وراحت تتنفس بانتظام وكأنما هي نائمة منذ قرون.

لم تدر "حنان" ما تفعل.. أرادت إيقاظها غير أن الرعب جعلها تنتظر راجفة.. وأخيرًا فتحت "دلال" أصابع كفها بوحشية ودبت الحياة في جسدها فركنت ظهرها إلى عمود الخيمة وجلست هادئة.. مر الصمت ثقيلاً بائسًا ثم تحدثت بتؤدة.

- تحضرين عشر ليرات لشراء بخور جاوي.. ومثلها بعد شهرين ثمن بعض الدجاج نذبحها ونلقيها في الماء طعامًا لشياطين البحر.. أما زوجك العاق فسيعود إلى رشده في هذه الليلة فلا تحزني..

انفرد وجه "حنان" على سعته.. رمت فمها على يد فاطمة تقبلها وتدعو لها بالخير.. ثم غادرت بعد أن أسقطت في يد "دلال" عشر ليرات ثمنًا للبخور الذي طلبه الأسياد.. وما إن غادرت حتى ارتمت "دلال" على الأرض ضاحكة ترفص برجليها التراب فتعفر وجهها وجسدها وحصيرها.. وظلت تضحك حتى أصابها التجهم فجأة وأطلت عيناها من محجريهما.

(ومن أين البخور.. سوف تأتي فأوقد النار وأقرأ الأوراد وأستجمع كل تعبيرات وجهي لأقنعها أنني أحادث الأسياد.. ولكن البخور.. البخور..من أين يؤتى به)

ابتسمت وهي تذكر خطواتها الوجلة تائهة خارج المخيم تبحث عن روث بقرة جاف تطحنه ليصبح بخورًا جاويًا مستوردًا من بلاد الهند.. وأخيرًا عثرت على الروث وعلى عشر ليرات كاملة تكفيها لأن تعيش أسبوعًا في بحبوحة افتقدتها منذ أن غادرت حيفا).

تناهت إلى أسماعها أصوات متداخلة.. صبية يتقاتلون ورجال يشتمون ويسبون ونساء يثرثرن بأصوات عالية.

(سوف أخطو نحو المرحلة الثانية فأتفاهم مع زوجها الغبي.. مَن يمتلك امراة في مثل جمال "حنان" وسذاجتها يجب ألا ينظر إلى غيرها).

بسطت حصيرها على باب الخيمة وأخذت تقلِّب نظراتها بين الوجوه المتعبة التي تجتازها.. ومن بين الجمع برز وجه "يوسف" كالتائه يحث الخطى فنادته بصوت عال.. نظر حوله وقد حسب أنها قد أخطأت لكنه رأى يدها تشير إليه بالقدوم فجاء على استحياء..

- اسمع يا "يوسف".. نحن جيران وأولى بي أن أدلك على الخير.. ولكن قبل أن أتحدث إليك أرجو أن تعدني أن تكتم ما

بيننا خشية أن يصيبني مكروه..

اتسعت عيناه دهشة وقال: خيرًا إن شاء الله.

- ليس هناك غير الخير.. صمتت ثم تابعت: عدني بأن تحافظ على سري فلا تفضحني..

فتح فمه وبدا كأنما يريد أن يستمع إلى أمر خطير فخفت صوته إلى الدرجة التي تسمعه.

- أعدك،، نحن جيران ولن أفه بكلمة.

- حسن.. ما دمت تحفظ السر وتصون الجيرة فإني أعلمك أن حمدان العسكري يلف حول زوجتك..

- ماذا؟

- صبرًا.. زوجتك لا تعلم بالأمر.. وقد أوصل لي أحدهم أخبارًا بأن "حمدان" يقول.. خيمة هذه المرأة خالية من الرجال.. يتركها "يوسف" وحيدة إلا من دموعها ثم يسهر حتى طلوع الفجر.. إنها بحاجة إلى مَن يرفع الضجر عنها ويسلي وحدتها..

زمجر "يوسف" وكور قبضته في الهواء فتابعت "دلال":

- لا تكن أحمق يا "يوسف".. السلطة قوية إلى الحد الذي ترميك في جوف الرطوبة ثم يستفردون بها واحدًا تلو الآخر..

هنالك شواهد على ذلك لأخريات مررن بتلك التجربة..

فكر "يوسف" قليلاً ثم قال:

- وبماذا تنصحينني؟

- الأمر بسيط.. أن تنام في الخيمة وتترك السهر وقلة الحياء فلا يلوك سمعتك الناس بالسوء وتحفظ على "حنان" عفافها.

- بودي لو أقتل هذا الحمدان..

- أعدنا إلى الحمق والمتاجرة بالقوة الزائفة.. كلانا يعرف الآخر فدع عنك ركوب الموجة إن كانت ستغرقك.

سكت "يوسف" ثم قال فجأة:

- وهل أستطيع حماية زوجتي إن اقتحم علي "حمدان" الخيمة..

- مهما كانت قوته فهو جبان أمام الرجال.. السلطة يا بني تستأسد عندما ينام الناس وتغدو كالفأر عندما يستفيقون..

- حسنًا.. أشكرك يا خالتي "دلال".

في اليوم التالي جاءت "حنان" إلى البصارة وقد حملت أكياسًا ورقية تحوي من الفواكه ما لم تذقه "دلال" منذ ابتعدت عن مدينتها مكرهة.

سمعت "دلال" صراخًا ونحيبًا فارتجفت.. جاءها الصوت يشق الأزقة موصولاً بالحرقة فأصاخت السمع لتحدد الوجهة.. وعندما أيقنت أخذت حذاءها في يدها على عجل وانتعلته خارج الخيمة.. ثم أسرعت نحو الفراغ.. كانت خيمة "إيليا" تنزف ذلك الوقت دمًا ودموعًا.. الصبية خارجها قد أذهلهم موت "حنا" فبكوا.. والنسوة قد جئن من كل صوب يدخلن الخيمة ثم يغادرنها بعد دقائق وهن يصفقن بأيديهن حسرة واستغفارًا.. والرجال يتجمعون زرافات عند المدخل يحوقلون ثم ينسرب بعضهم إلى داخل الخيمة لإلقاء نظرة ثم يعودون والألم مرتسم على وجوههم.

- مات "حنا" يا حجة "دلال".. قالت زوجة "إيليا".

رمت "دلال" شالها على أرض الخيمة وشقت ثوبها حتى الصرة.. صرخت بأعلى صوتها فمزقت القلوب.. تمرغت.. بكت بحرقة.. ندبت. فتبعتها النسوة يندبن بصوت محترق.

ورغم الوجوم الذي أصاب "إيليا" وتحجر الدموع في عينيه أخذ عقله يعمل بسرعة.. كيف يستطيع شراء ثوب لتلك التي تبرعت بتمزيقه.. ولما لم يجد وسيلة لذلك عض شفته حتى أدماها.. ثم تنفس.. غير أن الرعب عاد ثانية إلى وجهه وهو يرى "دلال" قد غرقت بالزبد الذي يتناثر من شدقيها ويصب

على نحرها.. وجاء رجل من خارج الخيمة فأجبره أن يغادرها..

كانت "دلال" عندما ترى حماس النسوة يفتر في الندب تولول صارخة وتمزق قطعة من ثوبها المهترئ فيدب الحماس ويعلو الصراخ.. وفي الخارج كان الرجال يتحدثون.

- البكاء على الميت حرام.. لنسرع كي نواريه التراب.

- نعم.. نعم.. فإكرام الميت دفنه.

- ليذهب أحدكم إلى المقبرة الأخرى ولنحضر تابوتًا لـ"حنا".

صرخ "إيليا" من خلال نحيبه..

- كلا.. لن يدفن هناك.. لقد عاش "حنا" في المخيم ويجب أن يدفن في مقبرة المخيم..

قال أحدهم باشفاق: ولكنه مسيحي ولن تسمح الدولة بأن يدفن في مقابر المسلمين.

قال "إيليا" بألم.. سيدفن هنا غير بعيد عني كيما أستطيع زيارته صباحًا ومساء..

احنى الجميع رؤوسهم.. ثم ذهب بعضهم إلى المقبرة وقد عرجوا على خيامهم فأحضروا رفوشًا ومعاول وبعض الماء..

ومنذ ذلك اليوم.. أصبحت "دلال" ندابة المخيم.. يفتقدها

أهل الميت إن غابت.. ثم يحضرون إلى خيمتها وقد حملوا عن روح الميت هدايا وبعض الليرات وقليلاً من اللحم وبعض ما تيسر.



لم تكن الزغاريد تهزها بالقدر الذي كانت تهتز فيه لمرأى النقود تسيل في يدها كرقرقة الماء في قناة منحدرة.

جاء الصيف سريعًا.. وفي الصيف يكثر الناس، حيث يزداد الملل.. فما من شيء يفعله أولئك الذين يعيشون في قبور الأحياء شتاء سوى أن يتناسلوا.. أما في الصيف فالأمر مختلف.. وفي غضون أيام قليلة كانت عدة أعراس تلفها الزغاريد وكؤوس الشاي تنتشر على مساحة المخيم.

وهكذا غدت "دلال" زعيمة الأفراح كما هي في المآتم.. تخرج من خيمة ميت وثيابها المهترئة مدلاة على جوانبها فما تكاد تصل إلى خيمتها حتى يصلها ثوب جديد أو مستخدم فيما سبق.. جهد أهل الميت حتى استدانوا ثمنه.. وتغني في الأفراح وتخرج من خيمة أهل العروس وفي يمناها ما لذَّ وطاب من صنوف الفواكه والطعام..

وكثيرًا ما رأى الناس "دلال" وهي ترتاد سوق الملابس القديمة لشراء ثوب قديم لتحصل بدلاً منه على ثوب آخر بعد

تمزيقه.. فإذا ما انتهت من مأتم وصادفت عرسًا في الطريق أسرعت إلى خيمتها وارتدت أحسن ثيابها وعادت لتغني في العرس متحمسة كما لو أن العريس لها.

بعد وقت رأت "دلال" أنها بحاجة إلى مَن يساعدها في عملها.. وغابت يومًا كاملاً عن المخيم لتعود إليه وهي تمسك بيد فتاة حسناء مهلهلة الثياب جميلة الوجه رقيقة العود يبدو على ملامحها الفقر المزمن.. وهكذا أصبح أهل الميت يدفعون ثمن ثوبين بدلاً من واحد.. وغدا أصحاب العرس يتهللون لمرأى المرأتين وهما تصفقان وتغنيان بحرارة.

وعندما كانت "دلال" تخلو إلى نفسها في الليل تطمئن إلى أن أحلامها في بناء إمبراطورية مترامية الأرداف والنهود لا تغيب عنها الأيدي المكتنزة قد تحقق جزءًا منها وهي في سبيل تحقيق الأجزاء الأخرى.

ولم يمض طويل وقت حتى أضافت "دلال" فتاة أخرى وثالثة. ثم رابعة وخامسة.. بعضهن خصصن للأفراح وأخريات للنواح والشعوذة..



جاء "حمدان".. فأنفه الذي يشم رائحة الليرات يعرف طريقه جيدًا.. ففي ليلة من ليالي الأنس في خيمة دلال..

اقتحم "حمدان" خلوة الأصحاب ليجد "موسى الشعبي" متربعًا على الحصير يصفق بيديه جذلاً فتأتي إحداهن لتصب كأس العرق فيرتشف منه قطرات ثم يدور الكأس فينتعش الجميع ويظهرون في حال من النشوة والحبور.

وقفوا جميعًا.. قالت لهم بهدوء اجلسوا.. فقد كنت أعلم أنه سيأتي.. قال "حمدان":

- لقد تحول المخيم إلى علبة لليل بفضل جهود دلال المشعوذة.

قالت دلال وهي تنزع ورقة من فئة الخمسين ليرة وتضعها قرب أنفه:

- أول الغيث رذاذ ثم ينهمر.

قال "حمدان":

- فليصبنا هذا الغيث فإني أحبه.

جلس "حمدان" وأخذ يرتشف قطرات العرق مع المجموعة فيسيل لعابه ويحلف الأيمان إن تعرض لهم أحد بسوء قشر جلده وأهداه لمقبرة المخيم.. قال له "موسى الشعبي" إني أكرهك.. وقال "حمدان" وأنا كذلك.. ولكني أحب النقود التي تسيل من راحتيك.. وقالت "دلال".. أما أنا فأحبكم جميعًا..

لأنكم مصدر المنجم الذي يصب على يدي الذهب.. وقالت فتاتان دعونا مما نحن فيه.. ولنتجه إلى الخيمة الخالية.. فالليل طويل.



"حمدان" يا ابن العاهرة.. إنك تأكل جل عرقي فلا أحصل إلا على القليل..

قال "حمدان" مبتسمًا:

- يا "دلال" يا منجم الذهب.. لم يبقَ على اكتمال بيتي سوى السقف عندها سأعتقك لوجه الله.. لا أريد منك جزاءً ولا شكورًا..

- أوأشكرك على ما تفعله بي يا ابن الزنا؟

- لو لم يكن "حمدان" في المخيم لماتت "دلال" من الجوع والقهر.

- لو لم تكن في المخيم لجاء غيرك.. كلكم "حمدان" الذي يأكل من جلودنا.

- يا "دلال" يا منجم الذهب.. لو تزوجتني لبنينا معًا إمبراطورية لا تستطيع الدولة أن تُسقطها.

- لن أتزوج خنزيرًا يعيش من عرق الناس ومن دموعهم..

ضحك "حمدان" وقال:

- أمثلك يتحدث عن عرق الناس يا امرأة.. ولكني أعشق العرق طالما يأتيني من راحتيك.. وأما الدموع فإني أبكي في كل ليلة حسرة على هؤلاء الفقراء الذين ينامون في الخيام ولا يجدون ما يأكلونه.

- قلبك رقيق والله..

- دعينا من هذا.. متى تستطيعين إدانتي المبلغ؟

- أي مبلغ يا ابن الزنا.

- أعدنا إلى الشتائم.. عشرة آلاف ليرة أكمل بها سقف بيتي.

- حسنًا.. غدًا عند الثامنة مساءً أعطيكها كاملة.

نهض "حمدان" من على كرسيه القش وقبَّلها.. فرح كطفل وعده أبوه بشراء هدية له.. وبعد لآي تركها وغادر والحبور يملأ وجهه.

أما "دلال" فلم تنم تلك الليلة.. قلبت الأمر على وجوهه وأخيرًا برقت عيناها بوميض غريب وابتسمت.. وما لبثت ابتسامتها أن اتسعت حتى غدت قهقهة عالية.

جاءت البنات والتففن حولها.. غير أنها عادت للعبوس وطلبت إليهن أن يذهبن للنوم ففي الغد ينتظرهن عمل كثير..

عند الصبح لبست "دلال" أزهى ثيابها واتجهت إلى منزل البيك.. وهناك حملت في عبها رسالة ممهورة بخاتمه وتوقيعه موجهة إلى مَن يهمه الأمر.. وعندما وصلت إلى خيمتها أودعت الرسالة في صندوق خشبي وهي تقول.. وهكذا دفعنا مائة ليرة لقاء قليل من الحبر على ورقة متسخة.

(أه يا "حمدان" يا ابن العاهرة.. أقسم إن لم أستخدمك في تنفيذ أغراضي لاعتزلت عملي وأعود لمضع أيامي عند باب الخيمة).

كان الوقت يمر بطيئًا فتفرك راحتيها وتستعجل قدوم الليل.. وعند الثامنة تمامًا جاء "حمدان".. هشت له وابتسمت ودعته للجلوس وعندما طالبها بالآلاف العشرة ناولته صورة عن رسالة البيك.. وعندما قرأها تلوَّن وجهه وتلعثم لسانه ثم وضعها على رأسه فقالت..

- منذ الغد تبحث لي عمن يصرف بضاعتي.. ولن أنساك..

قال "حمدان":

– أهذا عقد عمل جديد.. ثم من قال لك إنني يمكن أن أعمل قوادًا..

- إن طاوعتني ظلت النقود في يدك بالقدر الذي أريد.. وإن لم تفعل فمنزل البيك قريب..

قال "حمدان" متلعثمًا:

- حسنًا.. سأطاوعك.. ولكن... تابعت:

- لا تخَف.. ستظل "حمدان" الذي يرعب الناس وتخاف منك "دلال" عندما تكون بينهم..فابن الحكومة له احترامه. فـ"دلال" ذكية يا ابن أمك.. سأستفيد منك وأفيدك.. فلست طماعة إلى الحد الذي تفكِّر فيه.

- حسنًا.. وال.. الآلاف العشرة..

- ستحصل عليها بالتقسيط لقاء عرقك.. منذ الآن تعمل عندي..

- وما الذي سأفعله..؟

- كما قلت.. أريد زبائن جددًا لا يعرفونني.. أنت تعرف أنني أعطي رواتب تعيش منها عائلات الفقراء والمعوزين..

- ولكني لا أستسيغ ذلك.. يكفي ما آخذه من المخيم.

- أنت تأخذ نقود الفقراء.. وهي بالليرات.. ولكنك إن عملت معي تحولت الليرات إلى عشرات.. وربما تحولت العشرات إلى المئات..

- بمعنى أنك تريدين أن تتوسع تجارتك المشبوهة يا امرأة.

- أنت نذل.. تفعلها مع الآخرين وإني لأعرف ذلك.. أنت

تسرح خارج المخيم في ليالي الصيف لكي تدل الزبائن على مَن يقعن في حبائلك..

- وكيف عرفتِ ذلك؟

- "دلال" تعرف عنك كل شيء.. أنت تحاول إخفاء ما يعرفه الناس عنك.

- حسنًا.. دعينا نبحث ذلك في الغد.. فعندي الليلة مهمة أقوم بها ثم أعود إليكِ غدًا.

- لا.. سوف نتفق الليلة.. وإلا فلا أريدك أن تأتي هنا.. وإن تمنعت فبيت (البيك) أعرفه.

قال "حمدان" مرتعشًا:

– كلا.. لنبحث الأمر هذه الليلة.. وغدًا يوم آخر.

إذن لنتفق:

– ما الذي تريده؟

- نصف المبلغ لي والآخر لكِ..

- لا. هذا كثير.. لا تنسَ أنني أصرف من جيبي على رفاهية الزبائن..

- إذن تقتطعين الرفاهية ثم نتقاسمها معًا.. تدفعين النصف.. وأنا النصف الآخر.

- اتفقنا.....

تنهد "حمدان" وفرك راحتيه واستاذن ولم يمضِ وقت طويل حتى استقبلت خيمة دلال ضيوفًا ظلوا في حبورهم حتى الصباح.



توقفت سيارة كاديلاك أمام خيمة دلال.. وتجمع الصغار حولها فرفع "حمدان" هراوته وتوعدهم فهربوا جميعًا.. نزل متكرش من السيارة وتوجه نحو الخيمة فتبعه "حمدان".

كان (البيك) بجلاله يسرع نحو خيمة دلال.. و"حمدان" يرافقه في المقدمة..

قال (البيك) يا "حمدان".. تقف خارج الخيمة لنصف ساعة ثم تأتي إلي.. هناك أمر مهم أبحثه مع "دلال".. ولا أريد لأحد أن يصغى إليه..

قال "حمدان":

– تحت أمرك يا سيدي.

قال (البيك):

– أريدكَ أن تبلغ السائق أن يذهب ومن ثم يعود إلي بعد نصف ساعة من دخولي.. وقبل أن يدخل السائق إلى الخيمة

عليك إعلامي بقدومه..

- تحت أمرك يا سيدي.

تناول المتكرش من محفظته شيئًا تأكد لـ"حمدان" أنه بعض النقود.. وبعد أن تفرسها كانت مائة ليرة بالتمام والكمال.

وفي غضون سويعات قليلة قال بعض الناس من أهل المخيم إن "دلال" تستقبل الوزراء في خيمتها.. وقال آخرون بل هو أعلى من رئيس الوزراء.. وقالت فئة ثالثة إنه البيك.. وآخرون قالوا يا بختها لقد وصلت.. أما "دلال" فقالت في سرها: الآن أستطيع القول بأن مقومات إمبراطوريتي قد اكتملت.. وسأعلنها إمبراطورية تمتنع على كل الغزاة والطامعين.



(٤)

غســــــان

عند مغادرة الميناء نظر إلى البحر طويلاً.. قبل أن يتفرقوا في قرية الطيرة نظر إلى أبيه وأمه بحنان ثم أشار إليهما بالتحية.. كان الأب عبد الله في مدينة حيفا.. يحمل منكاشه ويحفر الأرض دون أن يزعجه صوت القذائف.. قال لغسان بحزم.

- لن أغادر يا "غسان".. هذه أرضي وسأموت فيها.. أبقَى هنا حتى إن عدتم وجدتم البيت والزرع على حاله

قال "غسان" بحنان:

- أعرف أن محاولتي في حثك على المضي معي لن تجدي.. فقد سبق وإن باءت كل المحاولات بالفشل.

كان "غسان" يعرف والده جيدًا.. فلاح ممن إذا ما أكل الفأس راحته حلف أغلظ الأيمان أن يزيد من عمق الفأس في رحم الأرض حتى تلد له الفواكه والزوع.. ولذا فقد أوصاه أن يرعى أمه جيدًا ثم لوح لهما.. وقبل أن يغيب عن ناظريهما قالت أمه:

- عندما نصل ابحث عن "عبد الله" جيدًا في بيروت.. أعرف أنه سيلحق بنا.. وربما وجدته قد سبقنا إلى هنا.. فهو لا يستطيع على البعد صبرًا.

هذه بيروت. وهذا الجمع من البشر التائهين يبحثون عن مأوى لهم.. آه يا بيروت يا جنة الله على أرضه.. متى نتكئ إلى ظل يحمينا من وهج شمسك الحارقة.. متى نبحر من مينائك ثانية نحو المنبع فنصفق جذلاً مودعين الجوع والعرق.. متى نودعك يا بيروت فنحلف ألا تطأ أقدامنا أرضك ثانية إلا زوارًا نمسح عن جبينك عرق الفقراء بحنان.

تفرَّس "غسان" في كل الوجوه لكن "عبد الله" أبى أن يطل بوجهه.. بحث في كل ناحية.. دار على عمال الموانئ والبناء والحمالين وباعة اليانصيب.. دخل كل حارة وشارع.. ظل "عبد الله" في عينيه حلمًا بعيد المنال.. وأخيرًا ركن إلى هدوء متوتر تحت ظل ورشة للبناء وعمل فيها بجد حتى استطاع كراء بيت يأويه.

لكن "عبد الله" أبى أن يفارقه.. ظل وجهه يطرق ذاكرته بعنف.

وفي يوم عاد إلى الغرفة ليجد "عبد الله" مفترشًا ساحة البيت بكسل.. فرك عينيه جيدًا.. لكن "عبد الله" نهض من

مكانه وعانقه.. بكى "غسان".. احتضنه بقوة وأدخله إلى الغرفة.. وهناك تحدثا عن أيام العذاب والغربة والحلم القادم.

"عبد الله":

هناك في حيفا حيث ينام الكرمل.. أصابه دوار شديد.. كانت الشظايا تتطاير من حوله. والناس يهرعون إلى الميناء كالمطر.. حاول اصطياد واسطة نقل إلى الطيره غير أنه لم يستطع.. قالوا له الطرق والمسارب مغلقة.. وعليه إن كان ينوي النجاة بجلده أن يستقل البحر إلى بيروت.. فرفض.. غير أن سيارة فيها من الغرباء ثلاثة يرتدون ملابس عسكرية أجبروه على الوصول إلى البحر بالقوة.. وهناك دفعوه إلى البحر.. وعندما وصل رأى الهراوات تأكل ظهور القادمين.

- انتظم في الصف يا ابن الـ...

- جئتم تأكلون طعامنا.

- يا جماعة عيب.. هؤلاء إخوانكم.

- نكبتهم نكبتنا.. علينا استضافتهم.

- يلعن....

انتظم في صفه، ثم نقلته الشاحنات مع الجمع إلى مقر مقفر.. وعندما جن الليل اخترق الأسلاك الشائكة التي

طوقوهم بها إلى حيث لا يدري.. قال له أحدهم دمشق قريبة.. وعليه أن يجتاز الحدود مهربًا إذا أراد أن يصل إليها.. وطيلة ليلة ويوم وهو يحث الخطى في أراض مجهولة حتى وصل.. وهناك رمى نفسه قرب صخرة ولم يستفق إلا في اليوم التالي.. ثم تابع سيره نحو دمشق..

أيقن أن أهله في بيروت.. لكنه لم يكن يملك النقود ليسافر ويبحث عنهم.. وعندما استطاع ذلك كان المنع من دخوله إلى لبنان يصفع وجهه.. لكن محاولاته في النهاية أثمرت في أن يدخلها لأسبوع واحد ثم يعود بعد أن استخرج بطاقة للاجئين فيها اسمه وكنيته..

بحث حتى كَلَّت قدماه.. وأخيرًا دخل إلى مقهى المخيم ليرى من دعى العبسي يحكي للسامعين على ربابته قصة البيك الذي يحيي الموتى ويدخلك السجن ويخرجك منه كما تسحب الشعرة من باطية العجين.. سأله "عبد الله" عن "غسان الطيراوي" فحلف أنه لا يعرفه.. وعندما أسقط في يده ليرة غمزه أن يأتيه مساء الغد قبل البدء في السهرة كي يدله عليه.



(٥)

أحمـد

شغف بها كما شغفت به.. كانت عيناه تأكل خديها كما يأكل الشره الطعام.. يحتسي من عينيها كؤوسًا مترعة بالعشق وألوانًا من طيوف تنقله إلى عوالم سحرية ضبابة.. فيتيه في خضم تأملات يجيش بها صدره الممتلئ عن آخره بالحلم المتوقع والقادم.. وكانت عيناه الصقرية تجرح.. تقف على حافة الدنيا وتصرخ طالبة إليه ألا يكف عن النظر إليها.. فتستجيب لها بالقدر الذي لا تلمح فيه عيون المارة والحاسدين.. وفجأة وجد نفسه يودعها دون أن يراها.. قصد بيتها كالتائه لكنه وجدهم قد رحلوا، نقَّب القرية بحثًا عنها فلم يعثر لها على أثر.. عاد إلى أمه فوجدها بانتظاره.. رمقته بنظرة حزن ثم وضعت يدها على كتفه واختفيا في ظلام أزقة القرية.

تطايرت من حوله رؤوس كثيرة. وعندما ميَّز وجه أمه المعجون بالدم أصابته نوبة حزن عميقة.. لكنه لم يبكِ قط.

لم تطفئ حرارة لقائه بالبحر سوى الماء.. وفي غضون أشهر قليلة غدا يكسب قوته من أفواه الحيتان وعجول البحر.. لكن

وجهها ظل يلاحقه.. بحث عنها حتى كلَّت قدماه.. وعندما كان قاربه الصغير يشق الماء باتجاه المجهول يتمدد على ظهره وتواجه عيناه الشمس بقوة ثم يستحضر طيفها يناجيه حتى يشعر بخواء في المعدة.. يمضغ لقيمات ثم يرمي شباكه وينتظر.. يجرها نحو الشاطئ وقد امتلأت بخيرات البحر.

آه يا بيروت.. عندما كنا نجلس معًا تحت ظلال الزيتون كانت تتمنى أن ترسو بها السفينة عند أقدام البحر لتلثم ثرى الشطآن.. لكنها ذهبت دون أن تسعفها الأقدار برؤية وجهك المعذب.

يبحث عنها كالتائه في كل الوجوه.. لكنه أبدًا يصطدم بقسوة العيش ورغيف الخبز ليأوي إلى خيمته حزينًا كاسفًا لا تسعفه كل تعاويذه من أن ينساها.. ثم ينزل البحر يومًا فيقف مبهورًا أمام زورق يدعوه لإبراز رخصة الصيد فلا يملك أن يتكلم.. يدور به البحر والزورق فيعود من حيث أتى.. وعندما يقف أمام رئيس النقابة يخبره ألا يمارس مهنته دون تخيص.. يمسه الحزن فيسكت.

على الطاولة منشورات يتناول أحدها، كلها تدعو للإضراب عن العمل.. تابعت عيناه بريق حاد.. يبتسم دقائق ثم يغدو أحد أعضاء النقابة.. يحمل في يمناه رزمة ليقوم بتوزيعها في

منطقته. وهناك يرى "مهران":

- دعنا نتحدث قليلاً.. هل ستُضْرِبون فعلاً.

- نعم، وإلا لما وزعنا هذه المنشورات.

- لكنكم ستحرمون قطاعًا كبيرًا من الشعب أن يتغذى بمادة رخيصة.

- ونحن.. ألسنا قطاعًا من الشعب؟!

- هذا صحيح.

- لكنهم لا يعترفون بهذا.. كلنا يشقى من أجل الحصول على الطعام تحت ظل شروط صعبة لا نستطيع العيش بظلها

- مِن أي بلد أنت؟

- من البلد التي أتيت منها.

ضحكا معًا.. سارا على رصيف الشارع معًا.. شربا قهوة ثم اتفقا على اللقاء.

لم يزل طيفها يعذبه، عندما اجتمع الأهل وقرروا أن يزوجوه حلف ألا يحيد قلبه عن عطاف.. فتاة كغصن رمان ندي رغم تمرسها بالعمل في الحقل تحت ظل الشمس المحرقة.. جاء إليها في اليوم التالي ليُعلمها النبأ، رقصت طويلاً لكنها حزنت.

- لمَ أنت حزينة يا "عطاف"؟

- أتتزوجني تحت ظل القصف يا "أحمد"؟

- أحبك حبًا تهون إلى جانبه حرارة القذائف.

- لكن الحب لا يمنع العدو أن يحتل أراضينا ويطردنا.

- هذا لا يمنعنا أن نتزوج.

- الأرض غالية يا "أحمد"، إذا لم نستقر فيها وننجب أطفالاً فسيكون أبناؤنا غرباء.

- لماذا تفسدين هذه اللحظات يا "عطاف"؟!

- قلبي يحبك يا "أحمد".. لكني أصارحك أن حبي للأرض أكثر.

- هذا يسعدني ويشقيني.

- فلنؤجل البحث في موضوعنا حتى تنجلي الأمور.

ولم تنجل الأمور بل ازدادت قتامًا.. وعندما لم يجدها عند رحيله كان كمن ينظر إلى حتفه ومع هذا فقد وصل إلى بيروت..

كان "مهران" يصف له صفو الحياة إذا ما تم النجاح ، ثم صارا قطعة واحدة لا يغيب أحدهما إلا بحث عن الآخر.. ونمت الصداقة فضمت آخرين.. وهكذا وجد "أحمد" نفسه يومًا وقد شغلته السياسة السرية عن عينيها.

(٦)

مهران

علا الزبد شدقيه وجف حلقه.. كانت كلماته كالقذائف تتخطى رقاب أصحابه ثم تنفجر عند أقدامهم، نعتوه بالجنون تارة وطورًا بالحالم الذي يرى الأشياء على غير حقيقتها.

قال له "غسان":

- أنت تحرث في البحر.. آذانهم قد غطاها الشمع وغدت كطين لا ينفذ فيه الكلمات.. اترك هذا الأمر وفتش لنا عن عمل نأكل منه الخبز.

قال "مهران":

- يا جماعة المهم أن نبدأ، صدقوني أن آلاف العيون ترمقكم بخوف وحذر لكنكم منذ البدء سوف تجدون مئات الأيدي ممدودة إليكم.

قال "إيليا":

- يبدو أن الجوع والخوف والتوتر قد جعلت "غسان" من فصيلة مجترة.. لقد أشبعنا هذا الموضوع بحثًا في المرات

الماضية.. وآن لنا أن نصوِّت عليه.

قال "أحمد":

– دعونا نتريث قبل أن نبدأ.

صاح "مهران" محتدًا:

– لكننا أمضينا شهورًا ونحن نجتر الكلمات، ثم لا تنسى أننا بدأنا منذ زمن.. وإلا لمَ كان لقاؤنا هذا اليوم وفي الأيام الماضية؟!

نظروا إليه جميعًا باحترام فتابع:

- علينا أن نتوقع كل شيء.. السجن والتجويع والتشريد وما إلى ذلك.. لكننا إذا ما آمنا أننا نعمل لخير الجميع يهون كل شيء.

قال "غسان":

– اني أتصور نفسي أقف أمام القضبان وأستجدي قطعة خبز من يد السجان.

رفع "مهران" يده فتابع "غسان":

- إني مع الجماعة أحيا حيث تعيش وأموت حيث تدفن.

ضحك "مهران" وقال:

– لست بحالم كما تتصورون، لكني أرانا وقد كبرنا وغدونا نأخذ حقنا بيدنا دون خنوع أو رجاء.. صدقوني إن رفع السياط عن أجسادنا عمل له ما يتبعه.

قال "غسان":

– اتفقنا ألا تكون هذه أولى المهام.

ضحك "مهران" وقال:

– صدقني إن كل ما سيأتي بعد الدم مقبول به من الأصدقاء قبل الأعداء.. سمعوا طرقًا على الباب فوجموا.. قال "مهران" لـ"غسان":

- هل تتوقع زوارًا هذه الليلة؟

- هزَّ "غسان" رأسه بالنفي.. ازدادت الطرقات عنفًا.. أيقنوا أنهم أمام مشكلة يقتضي حلها بسرعة.

قال "غسان":

– بإمكانكم القفز إلى فناء بيت الجيران.

فتح نافذة مطلة على باحة بيت صغير وتابع:

– من حسن الحظ أنني اكتريت هذا البيت. ولو كنا نسكن في خيمة لأمسكوا بنا كالأرانب.

قال "مهران":

– لن نقفز من النافذة إن أفاق الجيران تبدأ الكارثة.

ازدادت الطرقات.. وجموا جميعًا ولم يستطع أي منهم أن يتكلم.. سكنت الطرقات قليلاً.. ثم عادت مرافقة للكلمات تنادي "غسان" وتحثه أن يفتح.. تنفس "غسان" بارتياح وهمس لهم:

– إنه أخي "عبد الله". لم أكن أتوقع حضوره.

قال "إيليا":

– لم أكن أعلم أن لك أخًا في بيروت..

رد عليه:

– إنه يعمل في دمشق.

- حسنًا.. فلنفتح بحذر خشية أن يكون مجبرًا على اصطحاب رجال الشرطة..

تقدم "غسان" نحو الباب ببطء، شقه بتؤدة فاصطدمت عيناه بعيني "عبد الله".. ابتسم.. دعاه للدخول بصوت هامس.

سلَّم "عبد الله" ثم جلس على حصير في زاوية الغرفة.. نظر إلى وجوههم بشيء من الريبة.. قال "عبد الله":

- تحرصوا جيدًا.. إن الشرطة تتجول قرب البيت.

قال "غسان" مصطنعًا الجد:

– إننا أصدقاء نسهر معًا.. فلترابط الشرطة في الشارع ولتبقى أبد الدهر.

ضحك عبد الله بخبث وقال:

– إني حذرتكم فقط.. أعرف مثل هذه اللقاءات.. ففي دمشق نفعل الشيء نفسه.. ضحكوا هامسين وقال "مهران":

- وماذا تفعلون؟

- نفس الذي تفعلون.. لكننا هناك أكثر حرية في تحركنا.. نحن لا نتخذ كل هذه السرية فحزبنا قوي تخشاه الحكومة.

- ..

قال مهران جذلاً:

– سنتحدث مطولاً عن هذا الأمر.. وإذا كان هنالك إمكانية للتنسيق فنحن على استعداد.

قال "عبد الله":

– هذا إذا توافقنا معكم فيما تطرحون؟

ضحكوا.. جاء "غسان" بالشاي فشربوا.. كانوا أثناء رشفه يتبادلون نظرات متفحصة..

قال "عبد الله" فجأة :

– لقد نسيتم الشرطة.. إني أقول الجد.

- كعادتهم يجوبون الشوارع ليلاً.

- أخشي أن يكونوا قد اكتشفوا أمركم.

- لا أعتقد ذلك.. إنهم يراقبون كل البيوت.

- كونوا على حذر أكثر في المرات القادمة.

قال مهران:

– سنغادر الآن فرادى.. وسأخرج أولا ثم يتبعني "إيليا" فـ"أحمد".

قال "عبد الله" ضاحكًا:

- و"غسان".

قال "مهران":

– إنه بيته.

قال "عبد الله":

- لن يكون بيته هذه الليلة.

تبادلوا نظرات طويلة.. ضحك "غسان" وقال:

- حسن.. سأبيت الليلة عند" مهران".. ولكن إياك أن تعود لمثلها.. ثم غادروا فرادى.



(٧)

الشحرور

كلما لاحت له عصا الشرطي أينعت في وجهه الجروح، في صحوه يستقدم كل اللحظات السعيدة لكي ينسى لكن لسعتها أبدًا باقية تذكِّره أن بين المهن السرية والعصا قربى ووشائج لا تنفصم عراها على مدى الأيام.

وفي أثناء نومه يقفز عادة ويصاب بهوس مرعب. يصرخ ويصرخ حتى تضع زوجته يدها على كتفيه وتهزه بعنف كيما يستفيق.

في البدء كان أطفاله يرتجفون هلعًا.. لكنهم مع الليالي عرفوه فأصبح جنونه المؤقت (تهليلاً) يجعل عيونهم مغلقة حتى طلوع الفجر.

كغيره كان يعشق وجوه أطفاله.. ورغيف الخبز.. وكان أيضًا يعشق أن يحلم حلمًا متكررًا معادًا لا يمله.. أن يفتح عينيه ويغمضهما فيرى نفسه في (سحماتا) قرية تنام مطمئنة بين أشجار اللوز والصنوبر.. حيث ينكش الأرض ويعزقها

فتعطيه رغيفًا محمصًا يطليه بالزيت فيقضمه على دفعات حتى يمتلئ، وفي صحوه أن يضع المعادلة التالية:

لما كانت أرضه قد سرقت فلن يجد أرضًا أخرى يزرعها، إذن عليه أن يبحث عن رغيف الخبز أولاً..

ولما كان رغيف الخبز يحتاج الحصول عليه إلى أن يعمل طيلة يومه وجزءًا من الليل.. ولما كان العمل كالقطع الذهبية النادرة.. إذن عليه أن يحصل على الخبز بالوسائل التي لا يقرها المترفون.

في المرة الأولى جلس على الكرسي وصفق بيديه فأعطاه النادل كوبًا من الشاي الساخن.. وفي المرة الثانية تحسس جيبه فلم يجد فيه غير فرنكات عشرة.. انتفخت أوداجه وحلف أن يضرب الصغير حتى يقر بأنه سرقها من جيبه.. لكنه عاد وهدأ عندما جاءه صاحب المقهى وقال بصوت مسموع:

- تشرب الليلة الشاي على حسابي.

- هل أصابتك حالة الكرم فجأة؟!

- كلا، ولكني أطمع في أن أستغلك حتى تذوب.

- ليس من حل أمامك إلا أن تعصرني فأساقط ذهبًا.

- حسن.. هذا ما أريد.

- لكنك لن تعثر على غير الخواء.

- بل سأعثر على ما يرضيني ويشبع معدتك وأطفالك.

- كيف؟

- أترى هذه الثلة التي تجلس منفردة على مبعدة من العيون.. ثم أشار بإصبعه فتبعته عينا الشحرور تنقب؟

- نعم.. إني أراهم.

- أتعرف ما يفعلون؟

- أعتقد أنهم يلعبون القمار.

- ذكي والله.

ربت على كتفيه فازدادت عيناه التماعًا.. فتح فمه وهو يتلقى الكلمات كأنما يقشرها حرفًا حرفًا

- لن تتعب نفسك يا شحرور، ستجلس بجوار باب المقهى وتنادي بكلمة السر عندما تلمح شرطيًا أو رجل مباحث يود اقتحام المقهى.. وستنال أجرًا يحسدك عليه الكثيرون.

تردد الشحرور وانحبست في حلقه الكلمات.. جالت في مخيلته الصور سريعة متلاحقة.

(ماذا لو وضعوا قيودهم في معصمي ولحقتني ابنة الحلال

إلى السجون لتنفث في وجهي رذاذ دموعها). قال بحماس.

- كلا.. هذه مهنة غير شريفة.

ضحك صاحب المقهى:

- أتظنها كذلك، إن العشرات يركعون على قدمي في كل يوم كي أشرفهم بها.. لكني آثرتك بها لعلمي ما يقاسيه أطفالك.

انساب العرق غزيرًا على جبينه.. أخذ يرتجف كمن وضع نفسه عاريًا في ثلاجة كبيرة.. قال صاحب المقهى:

- سأدعك قليلاً لتفكر، لكني لن أمنحك سوى عشر دقائق.. أترى هؤلاء الذين يجلسون على رصيف المقهى.

حول الشحرور نظره ببطء وقال:

- نعم.. إني أراهم.

- سأختار أحدهم وأعطيه كلمة السر ليبدأ منذ الليلة..

قال الشحرور:

- وماذا لو سجنت؟!

- نحن شرفاء أيها الشحرور، سنلتزم بإطعام أولادك حتى تخرج لتمارس المهنة ثانية.

- أحقًا؟

التمعت عينا صاحب المقهى.. مدَّ يده إلى جيبه وأخرج ورقة لمعت في عيني الشحرور كقطعة ثلج اخترقها الضوء، فجأة.. قال صاحب المقهى:

- هذه عشر ليرات يا شحرور، اذهب واشتر لحمًا لأولادك ثم عُد إلينا ثانية.

التقطها الشحرور قبل أن يتراجع صاحب المقهى.. شق طريقه عبر أزقة المخيم وكلمات الرجل تلاحقه: لا تغِب طويلاً.. نحن بانتظارك.

عندما ألقمها الكيس الورقي زغردت، ضحكت وتجمع الصغار حولها كالسوار وأخذوا يتخاطفون التفاح ويصرخون، جلس الشحرور في وسطهم وأخذ يحدثهم والبشر يعلو وجهه، قالت له والدلال يفوح من عينيها:

- هل عثرت على كنز يا شحرور؟!

- كفي عن هذيانك يا امراة.. لقد وجدت عملاً.

- كاتب في شركة أم مقاول.

- ألا تتركين الهزء يومًا يا امراة.. أقسم أنها جاءت عن طريق شريف؟

- مذ تزوجتك وكلماتك كالسم تنفذ إلى دمي فتعكرهما لنا ولهذا.. أين وجدت العمل؟

- إنه سر يا امرأة.

- ألم أقل لك إن...... قاطعها.

- هل تريدين عنبًا أم تقاتلين الناطور؟

ضحكت وقالت:

- بل أريد العنب.

- حسنًا، كلي عنبًا وابتعدي عن تعكير دمي.

- كما تريد يا شحرور.

اقتربت وخللت شعره بأصابعها.. رفع إليها وجهه وابتسم.. أخذ الصغار يركضون داخل الخيمة.. جرى خلفهم حتى تعب ثم أطلق ضحكة عالية وقال لهم.. خاطركم.. سأذهب.



(٨)

العبسي

طارده الذباب طويلاً وهو يخطو خارج الخيمة.. سار محتضنًا ربابته العتيقة وقد شد أوتارها استعدادًا لحفلة جديدة.. وما لبثت الشمس أن غربت فرأى نفسه وجهًا لوجه أمام العسكري "حمدان".. عضو نشط من أعضاء مركز شرطة المخيم.. وشارب تعلوه خدود تفاحية جراء لعق الكونياك وجني المال الحرام.

ضحك "حمدان" فانفردت شواربه على عرض الطريق.. وقف مبهوتًا ثم أسعف نفسه ببعض الكلمات.. عبس "حمدان" وصرخ فتراجع "العبسي" مذعورًا وقال "العبسي":

- "حمدان" يا بيك يا ابن البيك.. قد خبأت نصيبك في الخيمة.والله.

- لكنك تهرب من وجهي دومًا.. لن تعمل بعد اليوم.

- الجوع يا شاويش "حمدان".

- الكلاب أيضا جائعة يا ابن الـ.. سيستفيق الناس وهم

يرونها تسحب جثتك من على مزبلة المخيم.

ارتعد "العبسي" وقال: ماذا تريد يا شاويش أنا تحت الأمر.

- جملة شروط تنفذها وإلا..

- لا لا يا سيدي.. سأنفذ كل ما تأمرني به.

- خمسون فرنكًا عن كل ليرة تقبضها.. ونصف دخلك من عمليات القوادة.. ونصفه عن كل سرقة تسرقها.

- يا سيدي "حمدان"، أنا طوع أمرك.. لكن القوادة شيء لا أرضاه.

- حسنًا.. أنا أتبع الحكمة المأثورة فأطالب بالكثير كي أحصل على القليل.. ألا ترى أنني متساهل معك كثيرًا.. لن أطالبك إلا بدخلك من تسويق المسروقات وعملك في صالة المقهى.. ها.... خزه بعصاه وغادر.

(يا ابن الـ... تعبي وعرقي في جيبه.. أموت حتى أحصل على بضع ليرات فيأتي ويعصرني حتى آخر قطرة)

اجتاز آخر خيمة فواجهته (تفاحة) تحمل على رأسها وعاء الماء.. كانت تسير وكل قطعة من جسدها تومئ بأنها مفصولة عن القطعة الأخرى.. مصمص شفتيه بحدة: يا بنت الزانية.. أقسم أن ردفيها أحلى من عرق شجرة البلان.. ولو أني فككت

أوصالها واحدة تلو الأخرى لظلت تفاحة التي تسير بغنج يفوق غنج العاهرات.. ولو أني جمعتهما ثانية لنادتني ولو على قارعة الطريق..

قالت "تفاحة":

- "العبسي" اليوم مخطوف اللون كعصفور طبق الفخ على جناحية وعنقه

قال "العبسي":

- العسكري حمدان ثانية.. إنه يجردني دومًا من آخر فرنك في جيبي.

- أنت تنتحل الأعذار كي لا تأتي إلي.

- إني أضع حصتك خارج حسابي مع "حمدان".

- لكنك تحصل على أضعاف ما تدفع.

- إني أعترف.

- حسنًا إذن سأنتظرك الليلة.

- بعد أن تخلو المقهى من زبائنها وينام الناس.

- وينام الناس.

- ضحكت بدلال فاهتز جسد "العبسي".. ظل يرقب

ردفيها وهما يهتزان حتى اختفت عن ناظريه

شدَّ على ربابته وحثَّ خطاه نحو المقهى.. ما إن سار قليلاً حتى جمد وكأنما قد تحول إلى تمثال شمعي.. صفعه وجه حمدان ثانية.. ودون أن يفكر قال لـ"حمدان"..

- ألم نتفق قبل قليل؟

- بلى ولكنك نسيت شيئًا مهمًا.. ثم إنك تتكلم من أنفك؟

- العفو يا سيدي: أنت تأمر ونحن نطيع.

- نحن من أيها الغبي.

- أقصد أنا يا سيدي.

- إنك تفخِّم نفسك كملك متوج.

- زلة لسان يا سيدي.

- حسن.. ما تود الليلة قوله في المقهى.

- كالعادة يا سيدي.. سأتحدث عن جساس والناقة.

ضحك "حمدان" حتى الثمالة:

- الليلة ستمجد البيك صاحب الباع الطويل.. فأنت تعلم أن الانتخابات باتت قريبة..

- لكن يا سيدي زبائننا لا يَنتخبون ولا يُنتخبون.

- المهم أن يفرض البيك سطوته وأن يجري اسمه على كل لسان.. ومَن يعلم ما تأتي به الأيام.. ربما طالبنا بأن تصبحوا مواطنين من درجة أرقى فتنتخبون.. سنهيئ الأجواء منذ الآن.

- هذا رائع.. وسأكون أول مَن ينتخب البيك ويهتف له.

تجاهل "حمدان" ما فاه به وقال:

- ألم تر أن نظرة البيك بعيدة المدى واضحة المعالم؟

- إني أرى ما يقوله وكأنه سيحدث الساعة.

- اذن ستصيغ الليلة كلامًا أحلى من الشهد في تمجيده.. ومكافأة لك على محبتك للبيك سأبتعد الليلة عن طريقك.. تستطيع حمل حصيلتك من النقود هذه الليلة دون جمارك.

اهتز جسد "العبسي" بقوة.. فرح حتى تساقطت قطرات من الدمع على خديه.. تصنَّع "حمدان" التأثر ثم مضى.

جالت برأسه أمورًا شتى، سيأكل الليلة من لحم "تفاحة" حتى يرتوي.. ثم يفتح قنينة نبيذ ويريقها على جسدها المكتظ بالشهوة.. وسيلعق قطرة إثر أخرى حتى لا يستطيع التفرقة بين الشيطان والقديس.. وقبل بلوغه خيمتها سيشتري علبة من اللحم وبعض السجق وقليلاً مما تشتهي نفسه.

عبس فجأة وخياله يطوف فوق جسدها المترع بالمتعة..

وسيعفيني الليلة من دفع الإتاوة.. لكني متأكد أنه سيلهف ما هو أكثر.. هل يعقل أن كلف البيك أحدًا بالتغني فيه دون أن يدفع.. سيلتقط "حمدان" المبلغ بحجة أنه سيسلمنيه.. ثم يأكله حتى آخر فرنك فيه.. وسيأتيني غدًا مربتًا على كتفي شاكرًا مديحي للبيك في المقهى.. ومن المؤكد أنه سيكلفني بمهمات أخرى ترهقني وتملأ جيبه.

سار متمهلاً يتقلب وجهه بألوان الطيف.. وما لبث أن وصله الصخب والضجيج وأصوات طاولات النرد وقرقرة الأراجيل فوقف واشتمَّ رائحة التبغ الرخيص.. ثم ولج المقهى وهو يلعن "حمدان" في سره.. ورواد المقهى في علنه.. وصاحبها بين السريرة والعلن.



(٩)

(إرهاصات)

هذه بيروت التي كنتم توعدون..

استرجع سكان المخيم تعليمات "حمدان" الذي ذهب ولم يعد والتي كانت تقول: إذا جاءك زائر من أهلك أو أقاربك يجب عليك إخبار مركز الشرطة مع إعطاء تفصيلات عن مدة إقامته ووجهته القادمة.. ممنوع على السكان تعليم أطفالهم إلا من خلال وكالة الغوث وللصفوف الابتدائية فقط.. المهن المتاحة للسكان أن تكون زبالاً أو واشيًا أو جاسوسًا أو قوادًا أو عاطلاً.. يمنع اقتناء السكاكين إلا في المطابخ ضمن الخيام فقط.. وكل مَن يحمل سكينًا خارج الخيمة سيُعفن في سجون الدولة.. ثم استعادوا سيرة "حمدان" الذي لم يعد..... بعد.....

لم يعثر على "حمدان" أو جثته أو ما ينبئ بأنه حي.. قال بعض الناس في المخيم إنه اختفى عن الأنظار لأن رزقه قد أصبح شحيحًا.. وإن المخيم قد أعلن العصيان فلم يعد يهتم بـ"حمدان" أو تهديداته.. وقال آخرون إن الدولة حبسته؛ لأنه لا يقاسمها بعضًا من غزواته في المخيم.. ثم تطوع آخرون بالقول إن (البيك) قد أخفاه؛ لأنه استأثر بالغنائم وحيدًا.. وقيل أيضًا

إن وكالة غوث اللاجئين قد رفعت قضية ضده؛ لأنها اكتشفت أن (حاميها حراميها) فأقدمت الدولة بناء على الشكوى على نفيه إلى مكان بعيد؛ حيث يقبع في الأسر وتصفده بالأغلال بعيدًا عن الأنظار.. شائعات كثيرة بدأت تدور في الأذهان.. أكثر من هذا انتشرت شائعة تقول إن "حمدان" يخرج في بهيم الليل إلى حيث مقبرة المخيم.. وحلف أحدهم برأس أبيه أنه رأى "حمدان" بأم عينيه ليلاً وهو يجلس إلى قبر ليس لشاهديه اسم وأخذ يكتب على أحدها.. هنا يرقد (خناس المخيم).. لكن البعض عندما ذهبوا إلى المقبرة لم يجد أحدهم تلك العبارة.. وفي غضون التكهنات سمع الناس في المخيم طلقات رشاش أضاءت الفضاء بلمعانها وسرعة جريانها في الفضاء..

انتشر العسكر مثل دود الأرض كي يعرفوا مصدر الطلقات.. قامت الشرطة بتفتيش الخيام جميعًا فلم يعثروا على أثر للطلقات الفارغة.. سكان المخيم شعروا بالسرور؛ لأنهم لم يسمعوا أبدًا طلقات أو أصوات قذائف مذ رحلوا إلى تلك الديار.. وفي غضون ذلك حدثت أشياء مهمة وخطيرة..

قال بعضهم إن تلك الطلقات قد جاءت من الأردن.. ومن نهرها تحديدًا.. لكن الكثير كذبوه.. إذ كيف تصل الطلقات من نهر الأردن حتى بيروت..

بعد لأي امتنع سكان المخيم عن دفع إتاوات للشرطة.. جاء

(البيك) إلى المخيم وقد عبأ سيارته بالتموين ووزعها مجانًا على السكان.. وسرت شائعة أن التموين الذي وزِّع فيه بعض من سموم فقام السكان بإلقائه في الزبالة رغم جوعهم.. قال أحدهم نجوع ولا تنازل عن كرامتنا.. امتنع "العبسي" عن العزف على ربابته بتفخيم البيك والسلطة.. وأخذ يحكي عن البلاد التي ضاعت.. انقلب الحال رأسًا على عقب.... لكن الفقر ظل على حاله.. وزادت الأسمال تمزقًا والدنيا أصبحت ضيقة كعين صقر لم يجد ما يأكله..

وفي ليلة كان القمر فيها محاقًا صرخ مناديًا بالناس أن "العبسي" سيتحدث تلك الليلة على ربابته عن أقمار سيراها الناس تضيء أرجاء المخيم بشهب ترتفع حتى النجوم.. فهرع الناس إلى المقهى.. وفي غضون ذلك تبرع صاحب المقهى بتوزيع المشروبات على الناس مجانًا.. واختفت الشرطة من أزقة المخيم وركنت إلى مبناها دون أن تنبس بكلمة.

قيل فيما بعد أن النجوم في السماء قد انتقلت من مكانها إلى أرض المخيم.. فقامت الدولة بناء على تلك الشائعة بإنارة الطرق حتى لا يتعثر السكان بحبال الخيام المنفردة على حواف ومسارب الأزقة..

وهكذا.. ظل الحال على ما تغير حتى جاءت غمامة كبيرة فغطت وجه القمر.. فأصدرت الدولة بيانًا أعلنت فيه عن الإفراج عن السجناء حتى إشعار آخر..

المؤلف في سطور

- رئيس تحرير جريدة (صوت العروبة) التي تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية منذ أكثر من ثلاثين عامًا باللغة العربية.
- عمل محرِّرًا صحافيًا في لبنان وفلسطين والأردن.
- كتب في معظم الصحف والمجلات العربية في: مصر، لبنان، الكويت، العراق، الأردن، ليبيا، الصحافة العربية في لندن.

صدر له :

– أوراق من مفكرة مناضل: قصص قصيرة. دار الحرية ، بغداد.

– خناس المخيم: قصص قصيرة. دار العودة ، بيروت

– نقوش على جدران الزنزانة: قصص قصيرة. دار العودة، بيروت.

– عزف منفرد على قماش الخيمة: قصص قصيرة. دار الحرية، بغداد.

- الصعاليك : رواية . الولايات المتحدة الأمريكية .

- البراق : قصص قصيرة . الولايات المتحدة الأمريكية .

- وثيقة سفر فلسطينية : مسرحية . الإعلام الموحد .

- غروب في مطلع الشمس : دار نور للنشر . ألمانيا .

- صلي ع النبي يا جورج : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة .

- رحلتي إلى أمريكا : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة .

- الشيطان يموت مرتين : دار المؤلفون العرب، القاهرة .

- صهيل الخيول الكنعانية : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة .

- هذه بيروت التي كنتم توعدون : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة .

البريد الإلكتروني : wrabah@arabvoice.com



شمس للنشر والإعلام

٢٧ ش الثلاثين - برج الشانزليزيه - زهراء المعادي - القاهرة

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net